زوجات وأكروبات

متوالية قصصية

نادية البُرعي

نادية البرعى

زوجات وأكروبات

رقم الايداع / 1864 / 2014

الترقيم الدولى / ٤ - ٤٧ - ٥٣١١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

غلاف / رضوى عادل

حقوق الطبع محفوظة لدى الناشر

ليليت للنشر والتوزيع

الإشراف العام / إيمان سعيد

ليليت للنشر والتوزيع

هيئة تحرير ومراجعة

د/ سالم ابراهيم سالم

أ / رشا زقيزق

أ/ محمود السيد

المراسلات : 60 ش سكينة بنت الحسين

كفر عبده - الإسكندرية

ت : ٠١٢٢٤٢٧٢٣٢٧

: ٠١١٤٤٥٩٥٧٥٧

Dar.lilitte@gmail.com

lilettepublishing@gmail.com

www.lilithpublishinghouse.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

دار الوثائق القومية

نادية البرعى

زوجات وأكروبات

دار ليليت للنشر والتوزيع، ٢٠١٤ ط١

ص، سم ١٣×٢٠

تدمك /٤-٤٧-٥٣١١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

رقم الايداع / ١٨٦٤ / ٢٠١٤

الإهـداء

إلى الأزواج..

إذا لم تكن الزوجة سعيدة

فلن يكون البيت كله سعيدًا

ولا الشارع ولا العمل

ولا الأسرة ولا المجتمع..

فاسعدوا زوجاتكم لتشرق الحياة..!!

ناوية البرعي

حين دقت الساعة الثامنة مساءً أدركنا أنّ موعد الرحيل قد أتى وأنّ دمعاتٍ تتربص بنا مستعدةً للوداع، أحضر إلي بيت أبي وأمي كلَّ أربعةِ أشهرٍ من الثامنة صباحًا حتى الثامنة مساءً، أُعِدُّ بعضَ الطعام والحلوى وأُرتب المكان لاستقبالِ الزائرات العزيزات، نلتقي هنا أنا وجاراتي وصديقاتي وزميلاتي؛ حيث المكان الذي أحببناه كثيرًا واجتمعنا في هذه القاعة الكبيرة التي خصصناها لاستقبال الضيوف، بيتنا الكبير الدافئ الحنون المُحتضن لكل معاني الوفاء والإيثار، كلنا وُلدنا في هذا الحي الجميل، التحقنا بالمدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية لكن مكتب التنسيق أَبي إلا أن يُوزِّعنا على جميع كليات وجامعات الجمهورية، لكننا اتفقنا ألا نفترق، وكثيرًا ما تبادلنا الخطابات والصور وشرائط التسجيل التي تحمل أصواتنا وعَبَرَاتِنَا وضحكاتنا، تحكي كلٌّ منا حكايتها وتطورات حياتها، تزوجنا وأنجبنا.. منا مَن رحلت عن الدنيا بمرضٍ عُضال، ومنا مَن قُضت وهي تضع مولودها الأول، ومنا مَن هاجرت إلي بلادٍ أعجميةٍ غريبة عنا وتغيّرت حياتها تمامًا وأصبحت تنتمي إلى البلد الذي تعيش فيه وتحمل جنسيته، لكنها من داخلها ومن

أغوار النفس الشرقية الأصيلة ومن قلب القلب يهزها الحنين فتأتي إلينا تبثُّنا أشواقَها وحنينَها.. ننسى كلَّ ما مرّ بنا من مآسٍ وأوجاعٍ، نبحث في داخل ذكرياتنا كيف سارت بنا سفينة الحياة وسط أمواج الأقدار، وكيف هزتنا أمواجُ المفاجآت السعيدةِ مرةً والحزينةِ مراتٍ ومراتٍ.

أجلس هنا..أسمع صوتَ أبي ونداءاتِ أمي لنا لنأكلَ أو نصحوَ من النوم أو نذهب إلى المدرسة. كانت الحبّ بعينه وكان أبي هو الحنان ماشيًا على قدمين، وبعد رحيلهما أحببتُ أن يبقى بيتنا مفتوحًا للجميع حتى ولو من وقتٍ لآخر.. نأتي ونحكي، نضحك ونبكي، نغني أو نسمع ألحانَ الزمنِ الجميل، وحين تدقُّ الساعةُ الثامنة تحمل كلٌّ منا حقيبتها، تنظر في ساعة يدها لتتأكد أنه حقًّا موعد الرحيل.

يذهبن وأجلس وحدى ساعةً أخرى أُرتّبُ المكانَ وأغلقُ النوافذَ، أُسْدِلُ الستائرَ، أضع أطباق أمي وفناجينها في أماكنها المعهودة، أغلق الباب الرئيسي بالقُفْلِ الكبير وأعود إلي بيتي وأولادي، لكني أجلس وحدى أسجل حكاياتهن وأتذكر دموعهن في العيون المرهقة، أسمع آهاتِهن من صدورٍ تَعِبَةٍ وأجمع صفحاتي في..كتابٍ.

عفوًا.. هذا الرجل لا أحبه

اخرُجْ مِن هذا القلب، مِن هذا العقل.. مِن الوجدان.. اخرُجْ ولا تعد أبدًا فمثلك.. قدرٌ..همٌّ..غمٌّ.. نكدٌ أو أحزان، طِرْ في الهواء أو اقفز من فوق الأشجار أو أشعل في جسدك نارًا أو ادفن نفسك تحت الأحجار، سَلْ نفسك كم مرَّة مزقت مشاعري؟! كم مرة التهمت كبريائي؟! كم مرة أهدرت دمائي؟! كم مرة بتُّ مقتولةً، وجلستَ تشرب نخبَ رجولةٍ ماتت من قبل لقائي، ودموعي سالت أنهارًا؟! سَلْ نفسك، كم عامًا ضاع من عمرى؟

سرقت من عمرى السنوات تضحك لعذابى وأتألم، أبعدت عني أحبائي حتى الليل تستكثره علىّ، وتمر بعمري كالأموات، فكأنك كنتَ بغيرِ وجودٍ بغيرِ حياةٍ، أنت الميت تعبث بكلِّ الأحياء، وتثور غضبًا مِن هَفْوَةٍ..وأنت كلُّكَ هفواتٍ!

تمسكت ببقايا عمري،وبقيت أناضل كي أحيا. تبتسم في خبثٍ تستهزئ، أحلام صِبايا لن تهدأ، أزهاري ما زالت تتفتح، بدماء القلب أرويها..بعيون الحب أُناجِيها، فالشمس ما زالت تشرق، والقمر اكتمل في وسط سماء ليالي القهر أُكَفِّنُهَا، ومعك حتمًا لن أحيا. أُخْرُجْ مِن هذا القلب، مِن هذا البيت، مِن كل الدنيا دنياي بدونك صارت أحلى، وعيوني تَرَاكَ مع الأموات..أُخْرُجْ!

أسبوع واحد

كانت ليلة عُرسى أجملَ أيام العمر، الجميع يرقص، يغني، يضحك؛ سرورٌ مستمرٌ طوال الليل، الطعام رائع، وعصير الفراولة أحمرُ اللون يفيض بالفرحة والبهجة، أمّا أنا فالدنيا كلها لم تسعْني من شدة الفرح، أخيرًا سأتزوج ممّن اخترتُه واقتعنتُ به كلَّ الاقتناعِ وأَقنعتُ أبي وأمي بأنه هو السعادة المنتظرة، وعدني أنّ أيامنا الورديةَ لن تنتهي، وأنّ شهرَ العسل سيمتدُ طوال العمر، وأنه سيرعى حقَّ الله في معاملتي، سيحقق لي كلَّ الأمانِ والحب والاستقرار، كانت الفرحة تملأ قلبي إلّا شيئًا ما بداخلي ينقر في جانبٍ صغير مِن قلبي؛ يَؤُزُّ أزيزًا خفيفًا في إصرارٍ، يأبى أن يتركني لفرحتي، يَهُزُّ وجداني، يهمس في هدوءٍ ولا أعرف بماذا يهمس.

حتى أمي التي تتحرك كالنحلة تتلقى التهنئة، ترحب بالجميع، تتحرك وتتنقل في خفةٍ شديدةٍ تحاول أن تبتسمَ لكني أرى نفسَ الشيءَ في قلبها ينقرُ ويَؤُزُّ في إصرارٍ.

في الأسبوع الأول تسلّلَ إلى روحي وعقلي أنه الإنسانُ والرجلُ والشريكُ والصديقُ والحبيبُ، أمّا في بداية الأسبوع الثانى - وبعد إعدادي الطعام- ناديتُ زوجي بصوتي الناعم الرقيق أن يأتي لتناول الغداء، وضعتُ طبقَ اللحم (كباب حلة) كما طَلَبَهُ فإذا به يمسك الطبقَ ويلقي بكلِّ محتوياته الساخنة على وجهي! أذهلتني المفاجأة، هوى بكفِّهِ الضخم على وجهي وكانت الصفعةُ الأولى، حاولتُ أن أرفع رأسي، أن أسألَ، أستفهمَ، أعرفَ ماذا حدث! صنعتُ له الطعامَ المطلوب وأعددتُ له كلَّ شيءٍ كما يجب توالتِ الصفعاتُ بيديه، والرَّكْلُ بقدميه؛ تورَّمَ وجهي، تصاعدتْ صرخاتي ممزوجةً بدموعي، جذبني من شعري، ألقى بي إلى الأرض، توالت الصفعاتُ والركلاتُ، صرخ قائلاً:

- اللحم لا يوضع فيه البصل، أمي تصنع كباب الحلة بالثوم فقط.
- كنتُ أعرف أنّ هذا النوع من الطعام يوضع فيه الكثير من البصل، لم أتمكن من الرد عليه، زحفتُ إلى غرفة نومي تتبعني قطراتٌ من دمائي التي سالت من فمي. سمعتُ طرقاتٍ على باب الشقة، جارتنا في الشقة المجاورة جاءت هي وابنتها على صوتِ

صرخاتي، حين سألتُهُ عن سبب كلِّ هذا، أجاب..

- أؤدِّبُ زوجتي، ولا أحدَ يتدخل، زوجتي وأنا حُر فيها أفعل بها ما أشاء! ..

دخلتْ جارتنا إلى غرفتي، هَالَهَا ما رأته في وجهي وجسدي من كَدَمَاتٍ، عادت إليه تصرخ:

- أنت وحْش، من يفعل هذا بزوجته فهو حيوان.
- أرجوكِ يا حاجة لا تتدخلي، سوف أصالحها بعد انصرافك.
- دخل إلى غرفتي، جلس إلى جانبي.. حاول أن يحيطني بذراعيه؛ فتباعدتُ..
- أنتِ التي أوصلتِنى إلى ما فعلت، تعلمين أني عصبيٌّ وأنفعل بشدة. على الزوجة السمع والطاعة لزوجها، ولن تدخلي الجنةَ إلا برضائي عنك.
- دخل إلى الحمام يغسل يديه التي تلطخت بدمائي، أسرعتُ إلى التليفون أستدعي أبي وأمي؛ فزعتْ أمي من صرخاتي وبكائي، سقطتْ سماعةُ التليفون من يدي وهويتُ على الأرض.

خيال مآتة

لم تعُد تهمني ملامحُ هذا الوجه، قد تمضي شهور وشهور دون أن أنظر إليه، هذا الكائن الذي يعيش معي منذ أربعين سنة، عرفتُه ولم يعرفني ولن يعرفني أبدًا مهما استمر وجودنا معًا، أفردّتُ له غرفةَ الابن الوحيد بعد زواجه وسفره إلى الخارج، أَمُرُّ كثيرًا أمام باب الغرفة، أسمعُ السيمفونيةَ المزعجة التي يعزفها كلَّ ليلةٍ فتتصاعد من صدره إلى أنفه إلى أذني (صوتُ الأنفاس المتحشرجة) أُغلق البابَ وأمضي إلى غرفتي لم أَعُدْ أتذكَّرُ كيف ولماذا ارتبطتُ به؟! وكيف أنجبتُ كل هؤلاء الأولاد والبنات الذين ماتوا جميعًا صغارًا ولم يتبقَ لي سوى هذا الابن الوحيد الذي انفردَ بحياته، واحتوتْهُ مشاغلُ زوجته وعمله وأولاده، أمّا مَن يتواجد معى فهو كخيال الظل.

تمزّقتْ مشاعري حين رأيتُه ليلةَ زفافي يهجم عليَّ بلا أيّ مقدماتٍ لا يرى إلّا جسدًا بضًّا نابضًا بالحياة والشباب،أعوامي الستة عشر أغرتْهُ بالهجوم

عليّ والتهامي قطعةً قطعةً، حين أتحدثُ إليه لا يسمعني، لا ينظر أبدًا إلى وجهي بل إلى صدري وبطني وأردافي.

حين صرختُ رافضةً..توسَّلَتْ إليَّ أمي ، فأموالُ أبيه الكثيرةُ التي وَرِثَها أغرتهم جميعًا ببيعي إليه، المهرُ الكبير الذي اشتراني به ساعد أبي أن يبتاعَ دكان البقالة القريب من بيتنا المتهالك، إخوتي التسعة نظروا إليّ بامتنانٍ فأنا الخامسة، قبلي أربعةٌ من البنات وبعدي أربعةٌ من الصّبية، وأبي بساقِهِ الخشبية لم يعُد يقوى على الحركة، افتتح الدكان بالموسيقى الشعبية وسلَّمه إلى أمي تديره بنفسها حتى يكبر الصبية وتتزوج البنات، كنت أجملَ شقيقاتي فاختارني دونهن.

صممتُ أن أكملَ تعليمي، في البداية رَفَضَ لكني تقدمت بأوراقي ذاتِ الدرجات المرتفعة إلى إحدى المدارس الخاصة لأنالَ الثانويةَ العامةَ. أخفيتُ زواجي، واجتهدتُ في دراستي، سائق السيارة الفارهة يحملني يوميًا إلى المدرسة ويعود بي كأيَّةِ تلميذةٍ، إذا اعترض زوجي على ذهابي إلى المدرسة، أغلقتُ بابَ غرفة نومي بالمفتاح وامتنعتُ عنه، فينام باكيًا أمام باب الغرفة حتى الصباح.

حملتُ في طفلي الأول في بداية العام الجامعي، وضعتُه قبل إتمام الحمل بشهرين وماتَ فورَ ولادته، لم يهتم زوجي، لم يتأثر، لم يحزن على فقدان فلذةِ كبده, دَفَنَ الوليدَ وعاد لتناول الطعام والنوم مثلَ كلِّ ليلةٍ، يأكلُ بصوتٍ

مرتفعٍ، يَتَجَشّأُ كالبعير، ينام كالثور المستهلك، كرهتُ كلَّ شيءٍ فيه، صوتَه، جسدَه، طعامَه وشرابَه، كرهتُ أفكارَه المتخلفة، (المرأة للزواج والحمل والولادة)، أَتَقَزَّزُ من رائحةِ أنفاسِهِ حين يقترب منّي، أتصنع النومَ والمرض والإرهاق لأهرب مِن معاركه الهمجية، يُخفي كتبي ويمنعني من حضور امتحانات الجامعةِ لأزورَ أهلَه وأقاربَه لأُجاملهم في مناسباتهم التافهة التي يهتمون بها كثيرًا، يتعمد السفرَ ويُصمِّمُ على اصطحابي معه.

تتابعتِ السنواتُ تلتهم شبابي وصحتي، أصبحتُ أتناول طعامي وحدي، أنام في غرفتي وحدي، أُخرج إلى المعارض والمكتبات وحدي. كنتُ أجلس ساعات طويلة مع ابني أحكي له ما قرأتُ من كتبٍ، أدَّرس له نراجع كلَّ المواد قبل الامتحان أحتضنه حين يأتي إليّ فَرِحًا بنجاحه وتفوقه، وحين رَحَلَ ابني أخذ معه حياتي كلها، ضحكاتنا معًا، حكايتنا معًا، مرحُنا، وفرحُنا، ابتسامةُ الأيام وعُمري وأملي كان هو، ضحكة الزمان لشبابي وجسدي الذي امتُهِنَ كان ابني، أمّا زوجي فهو المتفرج، سطحيتُه وتفاهةُ تفكيره، حديثُهُ الأجوف بعباراتٍ متكررةٍ سمعتها مرارًا وتكرارًا، حتى حين يحادثنا ابني على الهاتف، يردُّ عليه بعباراتٍ مسطحة لا معنى لها.

يوم ودعت ابني مسافرًا، سَافَرَتْ معه ذكرياتي الجميلة، أحلامي التي لم أحققها، عُدتُ إلى بيتي، أخرجتُ صورَ ابني وأهلي أتحدثُ إليهم، يبتسمون، حتى أمي في صورتها تبتسم صنعتْ هي مأساةَ حياتي وما زالتْ

تبتسم، نسيتُ أنا معنى الابتسام.. أتساءلُ عن رفيقي في الحياة.. مَن هو؟ أين هو؟

أَمُرُّ أمامَ بابِ الغرفة التالية لغرفتي، أسمعُ أنفاسَه، أُغلِقُ البابَ أدخلُ غرفةَ نومي، أفتحُ دولابَ ملابسي أُخْرِجُ صورةَ زفافي في إطارها الذهبي، أنظرُ فأراني.. أقف وحدي!

الكرز الأسود

خلعت ثوبي الأسود، ألقيتُه على الأرض، وقفتُ أمام المرآة أتأمّلُني، هذا القَوَامُ الرشيق، الشعرُ الأسودُ المُنْسَدِلُ على كتفي في استسلامٍ ونعومةٍ، الشفتان القرمزيتان، كلُّ هذا الجمال لم أعرف معناه إلّا الآن، خلعتُ ثوبي عملاً بنصيحةِ الطبيب حتى أتخلص من آلامي واكتئابي وتبتعد عني الكوابيس المصاحبة لي في نومي ويقظتي؛ عشرون سنة أعيش في الظلام، في الخفاء والاختفاء، حين تزوجتُ هذا المسئولَ الكبير الذي اشترطَ الزواج العرفي وعدمَ الإنجاب، سَكَبَ العسلَ في أذني والمُرَّ في حلقي، اكتحلتُ بالصبر واعتنيتُ بجسدي بناء على طلبه فبرغم بُخْلِهِ الشديدِ إلّا أنه يعطيني كلَّ النقود التي أطلبها للذهاب إلى النادي الرياضي (الجيم) مرتين أسبوعيًّا فهو يحب جسمي لينًا، رشيقًا، ناعمًا، بدون تلاهلات ولا تجاعيد في الوجه

أو حول الشفتين، وحمامي يمتلئ بالمرطبات التجميلية وكريمات التبييض والنتعيم وصبغات الشعرِ بكلِّ الألوان والأنواع، أمّا في غرفةِ نومي فأنا أُخفي مضاداتِ الاكتئاب ومسكناتِ الصداعِ المزمنِ. يهزأُ بي إذا تكلمتُ فأنا غبيةٌ بلهاءُ، حديثي بلا كلمات، إذا ضحكتُ فأنا تافهةٌ، قليلةُ التربيةِ أضحك بلا أسبابٍ، إذا طهوتُ الطعام فطعامي بلا طعم، إذا طلبتُ أن أخرج معه صرخ فيّ قائلًا:

- هل أنت مجنونة؟ كيف نخرج معًا.. العقد شريعة المتعاقدين، لا أحب أن تنقضي اتفقاتي معك وإلّا ..ثم يأخذني من يدي إلى غرفة النوم.. لا يرغب في شيءٍ إلّا جسدي.

حين فقد وعيَه ذات ليلةٍ استدعيتُ جارَنا الطبيبَ الشابَّ الذي اعتقد أنّ المريض هو أبي، اقترح أن يستريح أسبوعًا يتحرك في حدودٍ معينةٍ ويتناول طعامًا خفيفًا، ويهتم بمتابعة ضغط الدم، فتصلُّبُ الشرايين وقصورُ الشرايين التاجية - بحكم تقدم العمر- كلُّ هذا يستوجب الراحة، هكذا أفهمني الطبيب، حالتُه توسّلتْ إليه أن يستريحَ، لكنه أَبَى إلّا أن ينصرف ذاهبًا إلى زوجته الأولى أم الأولاد صاحبةِ الحسبِ والنسبِ.

نسجت من سنوات عمرى ستائرَ من الوهم تحجب عني الحقيقة، ألقيتُ بنفسي في بحر الظلمات، أتناول حباتِ الكرز الأسود التي تكاد أن تحرق معدتي بالقهر، وإحساسي الشديد بأني أقل منه في كل شيءٍ وبأنه يمُنُّ

عليّ بزيارته لي من وقتٍ لآخر يأخذ مني ما يريد، يشير إلى الطبق بأصابعه الملتوية: الكيلو بثلاثين جنيه في بيت أهلك لم تذوقي طعم البطيخ..في الليلة الأخيرة قال لى:

- أنتِ طبق الحلو بعد العشاء، العشاء الفاخر الذي أحضرته معي.. ألقى في وجهي بسلسلةِ مفاتيح..

- تفضلى أحضرتُ لكِ سيارةً، تخرجين كما تشائين، وتذهبين إلى كلِّ مكان وحدك، لا تستدعي التاكسي اذهبي غدًا لزيارة أهلك.

التقطتُ المفاتيحَ، قبضتُ عليها بيدي وكأني سأفتح بها كلَّ الدنيا، نظرتُ من الشرفة الكبيرة فإذا بسيارة زرقاءَ لامعةٍ أمام العمارة، نظرتُ خلفي، رأيتُه مستلقيًا في الفراش لا يتحرك، أُنادِيه فلا يجيب، ظننتُه نائمًا، اقتربتُ منه، صدرُه لا يتحرك، رئتاه لا تتنفسان، وضعتُ أذني على صدره أتسمع لخفقاتِ قلبه قلبُه ساكنٌ بلا أي ضجيجٍ، ناديتُ البواب الجديد الذي لا يعرف أنّ من يأتي لزيارتي من وقت لآخر هو زوجي، بل يظن أنه أبي أخبرتُه أنّ أبي فَقَدَ وعيَه مرةً أخرى، يجب أن أذهب به إلى أقرب مستشفى، حمله معي إلى المصعد، أسنده، طَوّقَهُ بكلا ذراعيه، وضعه داخلَ السيارة الزرقاء، كنتُ قد تعلمتُ قيادةَ السيارات أثناء عملي لديه كسكرتيرة في مكتبه، أجلستُه في المقعد الخلفي حتى يظن مَن يراه أنه نائم، توجّهتُ إلى فيلته الفاخرة، ألقيت بجسده أمام بابها وانطلقتُ، عدتُ إلى شقتي التي توسّلتُ

إليه أن يكتبها باسمي، ادّعيتُ أن أبي مات، (لا يهتم أي أحد من سكان العمارة بما يحدث فيها).

ارتديتُ الثوب الأسود، تداخلت وحدتي والذكريات الكئيبة والفراغ تشابكت كلها كخيوطِ العنكبوت، تحيط بي، تخنقني، تعتصرني داخل الشقة الفاخرة الواسعة، ألقيتُ بثوبي الأسود وبكل ملابسي السوداء، فتحتُ دولاب ملابسي، أثوابي المبهجة التي نسيتها، تبتسم لي تناديني.. أمسكتُ بفستاني الوردي،

التقطتُ كرزةً حمراءَ من الطبق الأبيض وضعتُها في فمي، أستشعر حلاوتَها، حرارتَها ودفأها، أخرجتُ نواتَها مِن فمي الذي اصطبغَ بلونها نظرتُ في مرآتي فإذا به يقف بجانبي مبتسمًا...صديقي الذي انتظرني طويلًا.

أرجوحة

(١)

مِن على أرجوحتي سحبوني، في الحمام حمَّموني، مشطوا شعري، وأحلى الثياب ألبسوني، لَطّخُوا وجهي بألوان قوس قزح، اقتحمَ علينا المكان والراقصة تتلوى أمامي كالأفعى، وأصواتُ الموسيقى والزغاريد تقتحم عليّ أحلامي. فَتَلَ شاربَهُ، علّقني في ذراعه، وجدتُ نفسي معه وحدي بعد انصراف أمي وأخي الأكبر وزوجته، انفجرتُ في البكاء حين حاول لَمْسَ كتفي اندفعتُ إلى أكبر غرفة ودخلتُ من بابها المفتوح على مصراعيه.. أغلقتُ الباب بعنفٍ، بكيتُ حتى النوم.

(٢)

طرقاتٌ على الباب أفزعتني، أخذتنى من أحلامي أمي وزوجة أخي، تحملانِ الهدايا وصينيةً كبيرةً تحمل أطايبَ الطعام، هرولتُ إلى حضن أمي، أطعمتني بيدها، تشبثتُ بثوبها في محاولةٍ يائسةٍ للعودة معها إلى بيتنا. نظرتْ إلى زوجي (الذي قالوا لي عنه فيما بعد إنه زوجي) فأشار لها برأسه ما معناه: لا..حملتني بين ذراعيها إلى غرفة النوم، لحقت بها زوجة أخي أشارت إلى زوجي أنْ يتبعنا، نظر إلى أمي التي أشارت له برأسها مامعناه: نعم.

ألقوا بي على الفراش، صرختُ، توجَّعْتُ.. دمائي تسيل!

(٣)

تأتي أمي كل صباح تطهو الطعام، وأنام في غرفتي، لا أعي أيَّ شيءٍ، تهاجمني أوجاعُ المعدة، أسرع إلى الحمام، تبتسم أمي (هكذا يكُن التوحُّم) أنجبتُ طفلى الأول.. وأنا ما أزال طفلة، أحتضنه، أرضعه، لكني ما أزال أحلم بأرجوحتي.

(٤)

شكاني زوجي إلى أخي الأكبر، الذي انْهالَ عليّ ضربًا وركلًا، كيف أنام كثيرًا، يحترق الطعام على الموقد زَحَفَ ابني بين الأقدام يحول بيني وبين أخي، امتلأ وجهي بالكدمات الزرقاء والحمراء، تَوَرّمَتْ شفتاي التي التهمهما زوجي في المساء. أنجبتُ ابني الآخر

وما زال الطعام يحترق على الموقد!!

(٥)

اصطحبني زوجي لزيارة أمي المريضة، تركني عندها خمسةَ أيامٍ. ماتت أمي، عدتُ إلى بيتي مع طِفْلَيّ الصغيرينِ، فتحتْ لي البابَ، وجهها الأبيض المشوب بحمرةٍ، شعرها الأصفر، عيناها الخضراوان؛ تعجبتُ، أهكذا تكون الخادمات؟! شركسيات!

أشار زوجي إلى غرفة الصالون التي أخرجوا كلَّ المقاعد منها، وضعوا لى دولابًا وسريرًا. احتلتِ الشركسية غرفة نومي، تقيم الولائم لأهلها وقريباتها، محظور عليّ أنْ أخرج من غرفتي أثناء تواجدهم في بيتي، ينام زوجي في غرفتها معظم أيام الأسبوع، وضعتْ طفلها الأول أقام زوجي حفلًا كبيرًا؛ احتفالًا

بختانِ الولد. في المساء عميق الضحكات تجلجل في غرفة نومي، أحتضنُ ولديّ وأنام، لكني ما زلتُ أحلم بأرجوحتي.

كفٌّ صغير

أمسكت بكفِّ ابنتى لتعبر الشارع بعد نهاية اليوم الدراسي، حين ضغطته ضغطةً خفيفةً دون قصدٍ مني صرختْ متألمةً.. الشارع هادئ لم تصطدم بشيءٍ ولم تتعثر، توقفتُ لأعرفَ ممّا تتوجع، أشارت إلى كفِّها الصغير الذي أفلتته من يدي فإذا به شديد الإحمرار والتورم حين سألتها:

- ماذا حدث؟!
- المدَّرسة ضربتني بمسطرةٍ، انهالتْ بها على كفي عدةَ مراتٍ.
- هل أثرتِ شغبًا، أم هل تحدثت مع زميلتك أثناء إلقاء الدرس؟
- لا والله.. لكني أخطأت في إجابة سؤال سألته لنا جميعًا.
- هل ضربتك وحدك؟
- نعم.. تركت الجميعَ وصاحتْ فيّ، أنتِ خائبةٌ يجب أن أؤدبك!

بيني وبين نفسي تعجبت، أَمِنْ أجل إجابة خاطئة تنهال المدرسة على

كفِّ ابنتي بهذه الوحشية؟!

حين عاد زوجي من عمله أريته كفَّ طفلته، نظر غيرَ عابئٍ، تناول طعامه وخرج مسرعًا، لم يعلِّق بكلمةٍ واحدةٍ ولا حتى مواساة للطفلة المتألمة، أحضرتُ دهانًا ملطفًا من الصيدلية، دهنتُ الكفَّ الصغيرَ ونامت ابنتي دون إنهاءِ الواجبات المدرسية، في الصباح لم تكن قادرةً على تحريك كفِّها.

في اليوم التالي طلبتُ مقابلةَ المديرة التي رحبت بي، حاولَت مقابلتي بالمُدَرّسَةِ، لكني رفضت أخبرتها أن والدها سوف يتقدم بشكوى رسمية في حقِّ هذه الجانية على ابنته حتى لا تعود لإيذاء أيّ تلميذةٍ أخرى .

في البيت حاولتُ دفع زوجي لكتابة الشكوى بصفته ولي أمر الطفلة المصابة بكدماتٍ شديدةٍ في كفها، رفض زوجي بإصرار، ثم حاول إقناعي بالتسامح وأن ابنتك شقية وتستحق العقاب ولا داعي لإيذاء المُدَرّسَةِ، اشتدَ النقاشُ بيني وبينه، سألتُ نفسي:

(هل يعرف زوجي هذه المُدرسة؟ ابنتي في السنة الأولى الابتدائية فكيف تُضرب هكذا على سؤالٍ لم تعرف إجابته؟ ولماذا صَمّمَ على إلحاقِ ابنتي بهذه المدرَسة وادّعى أنها قريبة من المنزل مع أني أسير معها مسافةً طويلةً للوصول إلى المدرسة والعودة منها؟).

هددتُ بالرحيل والعودة إلى بيت أهلي، وَقَفَ حائرًا متلعثمًا، تعلّلَ بأسبابٍ غيرِ منطقية ولا مفهومة، لم أعد أسمع مايقول كل ما يهمني هو

عقاب المُدَرَّسَةِ المتوحشة، اقتنعَ زوجي أخيرًا أنْ يأتي معي إلى مدرسةِ ابنتنا، استدعت المديرة المدرسة إياها، ما إن شاهدت زوجي حتى نادته باسمه قائلةً:

- ماذا أتى بك إلى هنا يا محمود؟ هل حدث شيءٌ لأيٍّ أحدٍ من الأولاد في البيت؟ هل كلهم بخير؟

نظر زوجي إلينا جميعًا كأنه ابتلعَ لسانَه، أمسكْتُ به:

- أتعرفها؟!

ردَّت هي عليّ وبأعلى صوتها:

- نعم يا حبيبتي.. أنا زوجته.. عندي منه أربعةُ أولادٍ والخامس في الطريق.

انتبهتُ إلى وجود تلميذتها الصغيرة بيننا

- أتعرفينه؟

- ده بابا..

تعلّقتُ في رقبته صارخةً:

- تَتَزَوّجُ مِن أخرى دون أن أدري.

عَلَا الهرجُ والصياحُ وأنا واقفة أحتضنُ كفَّ ابنتي المتورمَ بين كفيّ ودموعي تنهمر.

جدران

استعد للعودة إلى حيث كان، دخل الحمام، تحمّمَ وحَلَقَ ذقنه، غسل أسنانه، نثر عطره المفضل على وجهه وملابسه، استلقى على فراشه، ولا أذكره إلّا بمشهده اليومي، حين يعود من عمله، يغلق باب الشقة، يقف في الرُّدهةِ الضيقة، ويبدأ بصوته الجهوري الأجش في إلقاء عباراته الطائرة على رؤسنا، يسعد كثيرًا حين يستمع الجيران إلى موسيقاه اليومية عابرة الحوائط والجدران، ثم يبدأ في طلب الطعام، وينتهي بالتفتيش اليومي على كلِّ مكانٍ في البيت حتى الحقائب المدرسية للأولاد، يتشكك في كلِّ مَن حوله مدعيًا الغيرةَ عليّ وأخرجني من عملي، عزلني عن أهلي بسوءِ معاملته لهم، يعيش بالتكبُّرِ والغرور، يضرب الأرض بقدميه، وكأنه الرجل الوحيد في العالم .

قَيّدَنِي أولادي بقيودِ حبي لهم، خوفي عليهم، احتياجهم لي وكأني النسمة

التي تمنحهم الحياة، انكسرت الحياة في قلبي وعيني، عبر النوافذ أنظر، تلتصق فراشةً عابرةً بزجاج نافذتي، أهمس لها: يا ليتنى كنتُ مثلك أطير، انطلق، أكون نفسي، ولا أحتمل أن أكون ظلًّا لأحدٍ حتى لو كان هو.

حين خُفِض صوته أغلقت العينين؛ أحسستُ أني أتنفس، أخذتني الدهشة فضحكتُ بصوتٍ عالٍ، شاهدتُ ابتسامةً كبيرةً ترقص، فرحة تُلَمْلِمُ نفسي.. تجمعها بعد شتاتٍ، تنثرها في الهواء، تنطلق تصيح في مرحٍ، أزيلوا كلَّ الجدران.

إنحناء

أنحنى زوجي برأسه وبقامته الطويلة العريضة حتى كادت رأسه أن تلامسَ الأرض محييًا رئيسَ مجلس الإدارة للشركة التي يعمل بها، أصرَّ على دعوته لحفل عيد ميلادي، فَقَدَ الرجلُ زوجته منذ عدة شهور يعبث به الاكتئابُ والوحدةُ، فيتخبّط في قراراته، حتى تعرَّض للنقد اللاذع من الجميع؛ أكاد أنفجر غضبًا واحتجاجًا، بالأمس كان زوجي يتحدث عته بكلِّ سوءٍ ويذمه الذم القبيح، يأمل أن يجلس على مقعده.

جذبنى من يدي لأتعرفَ عليه بالمصافحة، نظرت إلى وجهه المستدير الممتلئ، عيناه الضيقتان تَشِيَانِ بالمكر والدهاء مع بعضٍ من العزَّة والكبرياء. لمحتُ دبوسًا ذهبيًا يتربع ويتمسك برابطةِ عنقه، الخاتم الذهبي الضخم في أصابع يده اليمنى كاد أن يُهرس يدي وأصابعي..لكن ابتسامةَ اليأس والهم تداعب شفتيه.

دعونا الضيوف لتناول الطعام، المائدة الحافلة بكلِّ ما لذَّ وطاب تمتد أمام

الجميع - جلس زوجي على رأس المائدة، أجلسه بجانبه، يطعمه بيده ينظر من حولنا باستغرابٍ.

بيني وبين نفسي كرهتُ زوجي، تأفّفتُ من تملقه وتزلُّفِهِ، الأوامر الهتلرية لي ولكلِّ مَن بالبيت، أمّا هذا الضعف والاستكانة وامتهان الرجولة، والكرامة فِمن أجل هذا الرجل أو مقعده.

في اليوم التالى، رفعت قضية خُلع، أجلس في بيت أهلي أنتظر انتهاءَ شهور العدَّة حتى أتزوجه!

صالة الألعاب

وقفتُ بجوار زوجي في البهو الكبير للفيلا الواسعة التي أصرّ زوجي أن يبنيها في هذه المنطقة النائية الهادئة، وَقَفَ منتفخًا وقد صَبَغَ شعره وشاربه وارتدى أحدث ما صَمّمَهُ كريستيان ديور، والعطر الفاخر المستورد تفوح رائحته من كل مكان، الضحكات تتناثر في مجاملاتٍ مزيفةٍ، والمصافحاتُ مغلفة بالمصالح المتبادلة وبالنفاق. انتهى الحفل، صعدت إلى غرفة نومي، أعاني الإرهاق، هوى جسدي على فراشي ورحتُ في نومٍ عميقٍ بملابس الحفل، في الصباح الباكر مددتُ يدي نصف نائمةٍ أتفقد زوجي، كان فراشُه باردًا، نهضتُ أبحث عنه، وجدتُه في حمّامِ السباحة الذي أقامه في منتصف قاعدةٍ كبيرةٍ تمتلئ بأجهزة الألعاب الرياضية يسبح بقوةٍ ونشاطٍ، تجولتْ عيناي في القاعة التي لا أدخلها كثيرًا، باب صغير مغلق يصر زوجي على الاحتفاظ بمفتاحه ولا يسمح لأيّ أحدٍ بلمسه أو فتح هذا الباب. أشرتُ

إلى الباب

- ألن تفتحه لي لأرى ما بداخله؟

أدارَ ظهره لي وكأنه لم يسمعني، أعدت السؤالَ، أجابَ غيرَ ناظرٍ لي:

- غرفة صغيرة أحفظ فيها ملفات الشركة القديمة.

الشركة الجديدة متعددة الجنسيات.. جديدة الملفات، لم أهتم فأسرار العمل لا دخل ولا طاقة لي بها الآن، خرج زوجي من المسبح، تناول طعام الإفطار، وانصرفَ إلى شركته الجديدة، شيء ما دفعني إلى دخول صالة الألعاب مرة أخرى، هواجسُ تطارد عقلي ويرفضها قلبي، أحببت زوجي من أول يوم لاستلامي العمل معه في شركته القديمة، تزوجني وأصرّ أن أترك العمل وأتحوّلَ إلى ربة منزل، كبر أولادي وتزوجوا؛ وسافروا يعملون بفروعِ شركاتٍ أبيهم التي سوف تؤول إليهم بعد عمرٍ طويلٍ، توالتْ مشاهد حياتي معه على مدى ثلاثين سنة، أنظر إلى الماء في حمام السباحة، أرى نفسي وكل خطوط العمر والسنوات ترتسم على وجهي أما هو فيعتني بتفسه عناية فائقة ويتناول المنشطات والأطعمة المميزة التي يستورد بعضها من الخارج، تاهت عيناي في صالة الألعاب، لكني لمحت مفتاحًا صغيرًا في الباب المغلق، نسيه زوجي، هرولت إلى الباب، أدرتُ المفتاحَ دخلتُ إلى الحجرة التي ادّعى أنها حجرةٌ صغيرةٌ لحفظ الملفات فإذا بها غرفةُ نومٍ كاملةٌ، على الفراش ملابسُ نسائيةٌ فاضحة، صورُ خليعة على الجدران، وزجاجةُ

عطرٍ حريمي فارغةٌ ملقاة على الأرض، وجدارٌ واحدٌ لا يحمل إلا مرآةً كبيرةً بإطار ذهبي نظرت إلى نفسي فيها، ماذا ينقصنى كامرأة؟ هل هي بعض الشعيرات البيضاء التي تسلّلت إلى شعري؟ مَدَدْتُ يدي ألمسُ المرآةَ وكأني أتحسّسُ وجهي فاهتزتْ؛ أزحتُها فوجدتُ بابا جانبيًا يفتح على الطريق.

إعدام

(1)

لم تفرح هدى بشيءٍ كما فرحتْ بالمجموع الكبير الذي حصلت عليه في الثانوية العامة وكانت الأولى على المنطقة التعليمية التي تقع بها مدرستها، طموحاتها بلا حدودٍ، تتطلع إلى العلم، حبها وتطلعها إلى العلم والعلماء دفعها إلى تعلُّمِ اللغةِ الألمانية لتدرس الهندسة أو الفيزياء ثم تسافر إلى الخارج تستكمل دراسة الماجستير والدكتوراه، تقرأ كلَّ ما تقع عليه يدها في العلوم الفيزيائية تحلم أن تكونَ عالمة مثل سميرة موسى أو مدام كوري، حين أخبرها أبوها أنّ أحدَ الرجال المرموقين تقدّم لخطبتها، ذُهلت، تعلّقت الكلمات في حنجرتها، تحاول أنْ تسأل، مَن هو وكيف ولماذا؟ لكن الأب لم ينتظر أن تسأل، أخبرها أنه دبلوماسيٌّ كبيرٌ رآها في حفلةِ زفافِ قريبته التي تزوجت منذ عدة أيام، وبدون أن ينتظر أيَّ إجابةٍ منها، أو رد فعل لما سمعته أمرها أن تستعد للزواج، فالرجل متعجل وسيسافر بعد عدةِ أيامٍ وسيصحبها معه.

(2)

ارتمت على وسادتها تَنْتَحِبُ انتحابَ المقهورِ المغلوبِ على أمره، أتنهارُ أحلامها؟ لم تعرف أنها جميلةٌ وأجملُ فتاةٍ في العائلة، الأب الذي هو مِن أصلٍ تركيٍّ بقامته المهيبة وصوته الجهوري، أغلقَ كلَّ أبوابِ الأمل، فكّرت في الهرب، ولكن أين تذهب؟ يقتلها أبوها

إذا فعلت أو حتى حاولت، دخلت أمها، احتضنتها تمسح على شعرها

- علم إيه وكلام إيه.. البنت ملهاش غير الجواز، وده راجل ولا كل الرجالة.
- مش عاوزاه، يتجوز أي واحدة تانية، بنات العيلة كتير، اشمعنى أنا؟
- هوه عايزك انتي، ماشافش في الحفلة غيرك انتي.
- يا ريتني ما رحت الحفلة دي، كانت مصيبة عليَّه.
- ولا مصيبة ولا حاجة، إنتى عارفة هوه مسافر فين، ألمانيا.

(3)

هدأتْ ثورتُها أحضرتْ كلَّ الأوراق المطلوبة، جمَّعتها في مظروفٍ كبير، وضعتها في حقيبة صغيرة، في ألمانيا يمكنها الدراسة ويتحقَّقُ أملها في الحصول على أعلى الدرجات العلمية، ستعمل وتجتهد وتعطي علمها كل طاقتها وتستفيد البشرّيه بهذا العلم، وتتحقق كلمة الله في أرضه، أ لم يقل لنا ربنا: اقرأ.

(4)

زُفَّتْ إلى زوجها وكأنها تُساق إلى المشنقة، من أول ليلةٍ أحسّت بنفورٍ شديد، كلما اقترب منها أُصيبت بالغثيان، يشرب ويترنح ويدخن، ثم يحمرُّ وجهُه وينتفخ، فينقض عليها، لكنها لا تستطيع أن تقول لا.

(5)

جمعت أوراقَها متوجهةً بها إلى كلية الهندسة سلمتها إلى الموظف المختص، زارت معظم المصانع، انبهرتْ بأساليبِ التكنولوجيا المتطورة، نظامِ العمل، التفكيرِ المتقدم، احترامِ الوقت، نظافةِ المكان والعاملين فيه، كل شيءٍ هناك

يحثها على التمسك بالأمل لكنها يجب أن تدرس عامًا على الأقل لعملِ معادلةٍ للثانويةِ العامة المصرية. عَارَضَهَا كثيرًا، وتعلّلَ بأسبابٍ واهيةٍ؛ ألحّت وألحت وأمامَ دموعها وتوسلاتها رَضَخَ لطلبها وسمح لها بإجراء المعادلة بشرط أن تستجيب له إذا أرادها، وأن تدرس عامًا واحدًا فقط.

حين تتلقى خطاب القبول بالكلية تُفاجأ بزوجها يثور ثورةً عارمةً ويرفض رفضًا باتًّا أن تدرس أيَّ دراسةٍ، تحاول المناقشة والإقناع، لكنه يرفض حتى مجرد الاستماع إليها, أخبرها أن أباها أعطاه كلمة بأنها ستكون زوجته فقط، الديبلوماسى الكبير يرفض العلم والعلماء، لا طموح، ولا عمل ولا أمل، فتحتْ فمَها مُحَاوِلَةً الكلامَ، لكنه لم يعطها الفرصة، رفض المناقشة.

أمسك بها من كتفيها ودَفَعَها إلى غرفة النوم، حين قاومته.. انقضَ عليها بالصفعاتِ قائلًا:

- أنا لا تمتنع عليّ امرأة.

(6)

أنجبت طفلين (توأم)، وضعت كلَّ حياتها وعقلها وطموحاتها في طفليها، تنام معهما في غرفتهما، تلعب وتقرأ وتذاكر معهما، تستكشف مواهبَ كلٍّ منهما، تحقّقُ ما حُرمتْ منه فيهما حتى تخرجا من الجامعة، أولهما مهندس

طيران، والثاني مهندس للطاقة النووية.

انتهى عمل زوجها بالخارج، تَقَاعَدَ، وتقاعد فيه كلُّ شيءٍ، عادتْ معه إلى بلدها، تركتْ أولادها يعملون في ألمانيا، طلبت الطلاق، رَفَضَ زوجها هددته بالخلع، هدّدَها بالقتل.

- ألا يكفي أني لا أحصل على حقوقي الزوجية منكِ إلّا بالقوة؟

همستْ لنفسها:

- ألا يكفيني ما تفعله كل ليلة مع صديقاتك؟ ألا تكتفي وتكف عن شراء الحبوب الزرقاء والمنشطات المستوردة؟

تحدَّت كلَّ شيءٍ، قدّمت الأوراق إلى المحامي الكبير المتخصص في قضايا الطلاق والخلع، استدعوها إلى المحكمة، وقفت أمام القاضي ترتجف، ترتعش، نظر إليها زوجها باحتقار، تقدّم منها:

- لن تنالي أبدًا ما تتمنين، أنتِ من ضمن أملاكي ولن ينتزع أحدٌ منّي ما أملكه.

قبل أن يتكلم القاضي هَجَمَ الزوج على المنصة قائلًا:

- يا سيادة القاضي، هذه المرأة كاذبة وستكذب في كل ما تقول، إنها يا سيدي، عاهرة، أولادها في ألمانيا وهي تريد أن تتسلى، وبارغم من سوءِ معاملتها لي إلّا أنني أبقيتها على ذمتي من أجل أولادها ومراكزهم الاجتماعية

الكبيرة، أمّا أنا فأحتاج إليها الآن فقط لخدمتي، فلن أفرط فيها.

نظر إليها القاضي.. سألها:

- أصدقًا ما يقول؟!

من حقيبة يدها أخرجت مسدسًا، وأطلقته!

ليلة زفاف

جلسْتُ بين يدي المرأة التي سوف تقوم بتحضيري لليلة الزفاف أو كما يقولون أجمل ليلة العمر كله، أقسمت عليّ الخياطة التي أعدَّت لي فستان الزفاف ألا يراه أحدٌ قبل هذه الليلة، طرّزته بحباتِ اللؤلؤ الصغيرة وصنعت لي تاجًا رائعًا، وضعته الكوافيرة على رأسي وأسدلت الطرحة البيضاء على كتفيّ، زغردت من فرحتها قائلةً:

- **أنتِ أجملُ عروسٍ أزينها في حياتي كلها.**

ليلة سعيدة امتدَ الغناءُ والرقص واللهو حتى الساعات الأولى من الصباح، همس لي زوجي وهو يصطحبني إلى عشنا السعيد:

- **أنتِ أجملُ الجميلات.**

ضغط على يدي بيده، أحسستها ملتهبةً، تسري نبضات قلبه في يدي، فيحدثني قلبُه بلا كلماتٍ، يحمرُّ وجهي وأخفض بصري خجلًا وحياءً، أدخل

الحمام لتغيير ملابسي، ما زال حيائي يمنعني من تغيير ملابسي أمامه، لم أُغلِق الباب تمامًا، سمعته يحادث أخيه الطبيب في التليفون ويقول:

- **آخد فياجرا؟ آخد كم حباية دلوقت؟**

انتفضت أذناي، تقلّص سمعي ممّا أسمع، تعجبتُ ممّا يقول، شابٌّ، رياضيٌّ، لياقته البدنية متميزةٌ وبكامل صحته يتناول الفياجرا! لم يتناول المسكرات وغيرها كما يفعل بعض الشباب في هذه الليلة ويأخذ فياجرا!

احتجَّت نفسي، ورفض جسدي أن يُعطى لرجُلٍ صناعي.

أشكال هلامية

أصرَّ زوجي أن أرافقه في كل مقابلاته وجولاته الانتخابية، ابتاع لي أغلى الملابس والمجوهرات، واستقبل خبيرة التجميل ضاحكًا:

- أريدها أجمل من نفرتيتى وكليوباترا.

جلستُ في مقعدي بالصف الأول أصفقُ له مع المصفقين، وَقَفَ ينظر إلى الجماهير الملتهبة بالحماس، يفركُ أذنيه حتى يسمع جيدًا الهتافات التي يضج بها المستأجَرون الذين جلبهم له سكرتيره الخاص.

بدأ خطبته:

بسم الله الرحمن الرحيم

ثم أخذ يتجوّل بعينيه ويتفحص الحاضرين.

- أحبائي.. أهلي.. أبناء بلدي .. أنا منكم وأنتم منِّي،

أينما أسير أحاول أن أمحوَ أحزانكم، أضع الابتسامة على شفاهكم،

أُجَفِّفُ الدمعَ من العيون، أحنو على الصغار قبل الكبار..قاطعه أحدُ الشباب:

- **عاوزين نشتغل يا باشا.. البطالة هدِّت حيلنا.**

أشار له بيده أن يجلس، حاول زوجي استكمال حديثه بصوته الجهوري:

- كل حاجة هتتعمل، الانجازات عملاقةٌ وكبيرةٌ في السنوات الأخيرة ومعدَّل النمو في تصاعد.

ثم انخفض:

- يا باشا، الخصخصة زوِّدت الفقر!

أشار له أن يجلس، عاود الحديث هذه المرة مزمجرًا:

- بلاش مقاطعه، سيبوني أكمِّل كلامي..

- أنتم يا شباب أعز الناس، لقد كنت شابًّا مثلكم، لكني كافحت واشتغلت، سافرت، شقيت، تعبت..

يبدأ اثنان من الشباب مقاطعته من جديد:

- عاوزين نشتغل زيك يا باشا، بس على أرضنا وفي بلدنا ووسط أهلنا.

- صَرخ أحدُ المسنين:

- ابني مات في العبَّارة يا باشا.

هتفت إحدى المنتقبات:

- زوجي في المعتقل ياباشا، مش عارفة أزوره، ممعيش فلوس أوكلّه محامي.

يعود التصفيق والهتاف من المُستأجَرين الذين يحاولون حجب أصوات المُحتَجِّين...يعاود زوجي الحديث:

- ولأجلكم أنتم أحيا وأتعذب من أجلكم، أعطونى أصواتكم؛ أُعطيكم عمري، أنا كلّي لكم وبكم لا أريد أن أرى أيَّ مريضٍ، عاجز، مسكين، فقير، محتاج، جاهل، عاطل، متشرد.

ينظر إلى أعلى رافعًا كفيّه:

- أعطني يا ربّ القوةَ لأسعد الناس، لأبني لهم مساكن ومستشفيات.

تضج القاعة بالتصفيق والهتاف.

يحني زوجي رأسه، يضع كفه على قلبه، يهرول إليه السكرتير الخاص، يهمس في أذنه:

- **اعطني دواءَ القلب..**

يتصنع زوجي أنه يشرب بعضًا من كوب العصير الموضوع أمامه لكنه يقذف بأقراص الدواء في فمه يلتقط أنفاسه، يعاود الحديث:

- صدقونى.. أنا أتعذّبُ من أجلكم، لا أنام الليل، وضعتُ برنامجي الإنتخابي أمامكم، اقرؤوه وافهموه، ثم القرار لكم ..

صاح أحدُ المراهقين:

- الأُمّية منتشرة يا باشا، أبويا طلعني من المدرسة وشغلني في ورشة عربيات.

وصاح مراهقٌ آخر يرتدي ملابس بالية:

- **حانقرا، ولا هانفهم؟ اخترلك حاجة من الاتنين.**

ضجت القاعة بالضحك والتصفيق، صاح زوجي مندفعًا:

- هأعملك إعانة شهرين عشان ترجع للمدرسة.

ترك كُلُّ الحاضرين أماكنهم، هجموا على المنصة التي وقفَ عليها زوجي، حاولَ مساعدوه إبعادَ الجماهير المنقضة على زوجي.

اختفى زوجي وسطهم، لم أشاهده بعدها أبدًا.

أوراق مرتَّبة

(1)

أمسك بيدي قائلاً:

- لا .. ابتعدي عن هذه الأوراق، لا تمسِّي أيّ شيءٍ
- سأرتبها لكَ.
- هل رأيتِ أديبًا مرتبًا؟!
- يجب على الأديب المثقف أن يكون مرتبًا إذا لم يرتب أوراقه.. فكيف يرتب أفكاره؟
- لا تناقشيني فيما لا تفهمين، وأنا مغمض العينين أستطيع أن أمد يدي وأمسك بالورقة التي أريدها.

أفلتُّ يدي من يده القوية المتصلبة، توجهت إلى باب الغرفة، لحقني بصوته :

- لا تنسي فنجان الشاي.

(2)

استيقظ مبكرًا على غير عادته، حمل كومة من الأوراق وخرج، دخلت إلى غرفة المكتب التي يرفض حتى أن أفتح نوافذَها أو أنظفها، فتحتُ النافذة الوحيدة، أطلَّ ضوءُ النهار، نظرتُ حولي، الغرفة واسعة جميلة، زينتها بأزهاري الجافة، علقت على الجدران اللوحات الزيتية الرائعة التي رسمتها بنفسي والتي وضعتُ فيها قلبي ووجداني.

بدأت أرتّبُ الأوراق، أُزِيلُ الأتربة المتراكمة والتي تصلّبت وجفتْ على زجاج المكتب، لمحتُ ورقةً مطويةً بإهمالٍ بين الأوراق، قرأتُ فيها:

"هي قبيحة الوجه، جاحظة العينين، مشعسة الشعر إذا حدثتُها لا تفهم، وإذا فهمتْ لا تستوعب، وإذا استوعبتْ لا تتذكر، وإذا تذكرت لا تنفذ ما أقول حرفًا واحدًا، ملابسها تتصاعد منها رائحةُ الأطعمة التي تطهوها طوال اليوم. لا أعرف كيف أستمر في حياتي مع هذه المرأة المُنَفِّرَةِ"

(3)

تسلّلت البرودةُ الشديدة إلى أطرافي رغم كوننا في شهر أغسطس، تجمدت في مكاني، هل أنا هذه المرأة المنفرة التي يعيش معها؟

لقد رَفَضَ الانجاب إلا بعد أن تُنشَر مؤلفاته، وينال من الشهرة والجوائز ما يتمنى، الأولاد سوف يشغلوننا عن إبداعاتنا، قفي إلى جانبي، ضعي يدك في يدي حتى نُحَلِّقَ معًا في سماء الشهرة والثروة والمجد.

تركتُ كلَّ شيءٍ من أجله، أهلي، صديقاتي، عملي، أمومتي، مستقبلي كله وضعته خلفي، تفرغت تمامًا لرعايته، تحملتُ ألفاظه السوقية، إلقاؤه بالأوراق والكتب في كلِّ مكانٍ بالبيت، عزلته وتقوقعه داخل أفكاره وغرفته التي لا يفارقها، معاملته الجافة وكأنني خادمة استأجرها، مناقشاته التافهة السطحية، حتى مهمته كرجلٍ انتهتْ منذ سنوات، رائحة عرقه الكريهة وملابسه التي لا يبدلها إلا حين ألقي بها في سلة القمامة.

(4)

وقفت أمام مرآتي..أتأملني، كيف أصبحتُ على هذه الحال؟! كل همي طهو الطعام، وضع فناجين الشاي والقهوة الواحد تلو الآخر، وهو يكتب ويكتب، وطوال سنواتٍ عشر لم يحقق أيَّ أملٍ من آماله، كلماته فارغةٌ عباراته سطحية، لا يهتم إلّا بالتعبيرات الجنسية الرخيصة وبالمشاهد الصارخة، لا يحترم أحدًا ولا أحد يحترمه أو يشعر أنه موجود.

فتحت أدراجي وأخرجت أقلامي وأوراقي وفرشاتي وألواني، بدأتُ أخطُّ أولَ الخطوط وأضع مشاعري التي نسيتها كثيرًا في داخل ألواني؛ أخطُّ وأرسم وألوِّن وجدتها أمامي.. تمد لي أصابعها الفضيةَ، وجهها الكريستالي، فمها الذهبي، شعرها المتلألئ، ثوبها الحريري الفضفاض، صوتها الهادئ الناعم المتناغم يعزف على أوتار قيثارة قلبي..

- اتركي كلَّ شيءٍ.. وتعالي معي.

أستغفر الله

انطفاتْ جذوةُ الحبِّ في قلبي قبل أن تشتعل، إحساس مبهم بعدم الراحة تغلغل في أعماقي، منذ الليلة الأولى أدركتُ أني أرتكبتُ خطأً كبيرًا في حق نفسي، لكني لم أستسلم للهزيمة، وقررتُ أن أستمر في حياتي معه، هذا الرجل سوف أصنع منه إنسانًا آخرًا، سوف أغيّر من طبائعه وعاداته، هذه الشخصية المسطحة غير الناضجة سوف أصنع منها شخصيةً واعيةً، عميقةً ناضجةً، ينبغي أن يتم تشكيلُه من جديد حتى يتحول إلى الإنسان الذي أريده .

كنتُ واهمةً، فمنذ أن تزوجنا وأنا أعيشُ معه الزمن الصعب، معه بدأتُ متاعبي ومعاناتي، فقد تعلّم في مختلف المدارس، وأنهى دراسته الجامعية، لكنه في حقيقة الأمر يتمتع بالجهل الشديد، يرفض الثقافة، يرفض التطور، العالم من حوله يجري ويهرول وهو يرفض أن يتحرك من مكانه، التصقَ بالشركة التي يعمل بها منذ تخرجه من الجامعة، لا يهمه ماذا يحقِّقُ من عمله

فهو غير طموحٍ، لا يسأل نفسه، لا يتأمل ولا يتساءل عن معنى الحياة، عن قيمة العمل، يذهب إلى عمله ويعود منه، يتناول طعامه بسرعةٍ، يلقى بنفسه على الفراش لينام، بل يَغُطُّ في نومٍ عميقٍ يتعالى شخيرُه طوال الليل حتى أترك له غرفةَ النوم وأنام بجانب ابنتي في غرفتها.

يجلس في وقت فراغه ليشاهدَ التلفاز وفي نفس الوقت يفتح الجريدة، ينشرها أمامه متصنعًا قراءتها، فما إن تمر بضع دقائق حتى يذهب في نومٍ عميقٍ، فأسحبُ الجريدةَ وأغلقُ التلفاز وأتركه لنومه العميق الذي لا ينتهي فهو ينام في أيّ مكان في القطار.. في السيارة.. في المكتب، إذا جلستُ أحادثه أو أسأله عن أيّ شيءٍ ينام وكأن صوتي يجلب له النوم، لا يعرفني، لا يسأل عني ولا يسأل عن أولاده ولا يتكلم معهم.. لا يعرف ماذا أكلوا ؟ ماذا شربوا؟ أين ذهبوا ؟ متى بدأت دراستهم ومتى انتهت؟

وعبثًا حاولتُ دفعَه إلى التغير.. بلا جدوى، حتى أنني اقترحت عليه أن يعود إلى الدراسة، وليحاول أن يتقدم إلى الدراسات العليا حتى يخرج من القوقعة التي صنعها لنفسه، فالقراءة والمذاكرة سوف تخرجه من عالمِ النوم الذي يحبه ويعشقه، أحضرت له الكتب والمجلات العلمية وشرائط الموسيقى، اصطحبته إلى معارض التصوير، إلى السينما، وإلى المسرح، يرى كلَّ شيءٍ حوله وكأنه لا يراه، يسمع الأصوات ولا يستوعبها، عندما حدثته عن الدراسةِ انتفضَ مذعورًا: ماذا؟! كيف؟! كيف أدرس مرةً أخرى؟! أنا

انتهيتُ من دراستي الجامعية وأحمل درجة البكالوريوس وأعمل في شركةٍ محترمةٍ ومركزي مضمون، أنال درجاتي وترقياتي ومستقر بعملي وعن قريبٍ سوف أصبح المدير العام للشركة كلها، ماذا تريدين بعد ذلك؟ فلتحمدي الله على ما أنت فيه فسوف تصبحين زوجةَ المدير العام.

نظرتُ إليه ذاهلةً، أيُّ مدير عام هذا المتجمد المتحجر الذي لا يتفاهم في أيِّ موضوعٍ، وإذا حاولتُ مناقشتَه لِأوقظَ عنده حبَّ الاستطلاع.. استدار ونام؟! وضع على رأسه تاجَ التكبر والغرور، ويظن أنه العلَّامة الأوحد في هذا العالم ينظر إلى الكمبيوتر، ويقول:

- كفوا عن هذا اللعب والهِزار! أغلقوا هذه الشاشات المضيئة أسكتوا أصواتها لأنام.

أصبحت لا أطيق حياتي مع هذا الرجل، أكره الجهل، أصبحت أنام بجوار ابنتي في فراشها، أتناول طعامي معها، أناقشها، نتجاذب أطراف الحديث، أصحبها معي في كلِّ مكانٍ، أذاكر معها، نتسامر ونتضاحك، أجلس مع صديقاتها إذا حضرن لزيارتها، أصبحتْ ابنتي كلَّ حياتي وحاولتُ أن أنسى أنني أعيش مع هذا الزوج الذي نسينا.

في يوم طلب فنجانًا من الشاي وعندما تأخرت في إعداده تطاول عليّ بألفاظٍ لم أسمعها منه من قبل، ثم رفع يده وهوى بها على وجهي! لم أتكلم، لم أعترض، عدتُ إلى غرفة ابنتي لأستكملَ معها المذاكرة استعدادًا للامتحان.

في اليوم التالي، حاولت أن أنام بعد أن نامت ابنتي، فجافاني النوم وجهي يؤلمني من أثر الصفعة، تذكرت زوجي ومعاملته السيئة لي ولابنته تذكرتُ صعوبة التعايش معه وطباعه السيئة، كم يقطِّر علينا في الإنفاق ويستولي على معظم راتبي ولا يترك لي إلّا أقلَّ القليل بحجةِ أني لا أحتاج إلى نقود، وأنه يأتي بكلِّ ما نريد إلى البيت.

- ألا أشتري لكم كلَّ احتياجاتكم؟

كم احتجتُ إلى الحب، إلى الحنان والاهتمام أكثر من احتياجي للطعام! كان يقول لي:

- عيناك هما مثواي الأخير.. أرقُدُ فيهما ولا أطير.

أمّا الآن فلا أسمع سوى السُباب والشخير، اقتربتُ من غرفةِ نومه، حاولتُ أن أمنع نفسي من سماع أنفاسه وهو نائم؛ اقتربتُ من فراشه، أمسكتُ بالوسادة ورفعتُها كدتُ أن أضعَها على رأسه وأضغط عليها بكل قوَّتي، وما هي إلّا لحظة فقدتُ فيها إحساسي بكلِّ العالم من حولي ولم أتذكر أثناءها إلا سوءَ المعاملة والإهمالَ والاستهانةَ بما أبذل من جهدٍ وتعبٍ في سبيل رعايته ورعاية ابنته وبيته، نعَمْ ، انفصلتُ عن العالم كلِّه وأردتُ له أن يموت.. كنتُ أشعر أني أفقد حياتي، عمري، شبابي، صحتي، ومالي، بل كل ما أملك مع شخصٍ لا يستحق ولا يعرف كيف تكون الحياة وما معناها، وكم طلبتُ منه الانفصالَ؛ لأني لم أعُد أحتمل الحياة على هذا النهج

الذي يعيش به ويقدسه، ولا يقبل أيَّ تغيير، أردتُ أن أستريح منه بعد أن رفض أن يسرِّحني بالمعروف بحجة المحافظة على منظرنا أمام الناس، نعم، الناس هم كل ما يهمه، أمّا أنا فلأذهب إلى الجحيم أنا وكياني وحياتي كلها، فكرت في كلِّ الأشياء، والساعات واللحظات التي أمضيتها وحدي حزينةً، مقهورةً صابرةً. رفعتُ الوسادةَ وأوشكتُ أنْ أضعها على رأس زوجي وأضغط وأضغط حتى يلفظ آخر أنفاسه.

أحسستُ أني أرى بصيصًا من النور ينعكس ضوؤه، يخترق النافذة، سمعتُ صوتَ المؤذن يؤذن لصلاة الفجر.

استيقظْتُ من لحظة اليأس التي احتوتني، تراخت أصابعي، انزلقتِ الوسادةُ من يدي، وضعتُها على الفراش.

حوار الطرشان

وقفتُ في المطبخ أطهو الطعام، حضر زوجي محملًا بأكياس الفاكهة، سابقة هي الأولى من نوعها، فزوجي لا يحب أن يحمل شيئًا، أيَّ شيءٍ (منذ خمس عشرة سنة) حتى مسئوليتنا لا شأنَ له بها، ألقى عليّ التحيةَ باقتضابٍ شديدٍ، رددتُ عليه باقتضابٍ أشدَّ. أتذكر نفسي يوم زفافي، وفرحتي تزغرد في داخلي لأني تزوجتُ ممن أحب، فستاني الأبيض ما زلتُ أحتفظ به إلى الآن، تركتُ دراستي العليا وتفرغتُ لرعاية بيتي وأولادي، عملي في رياض الأطفال يعطني طاقةً للحب والعطاء.. أصحو من نومي مبكرةً جدًّا يذهب أولادي إلى المدرسة، يتوجّه زوجي إلى البنك الذي يعمل به ، يضع أمامي كلَّ شهرٍ المبلغَ المتفقَ عليه لمصروفِ البيتِ، ثم لا يعرف عنا شيئًا حتى بداية الشهر التالي، إذا سردتُ عليه مشكلةً من مشكلات الأولاد أو أي حادثٍ عارضٍ، تثاءب وأعطاني ظهره ونام ويعلو صوتُ أنفاسه التي تخبرني

أني أعيش وحدي. يصحبنا كلَّ أسبوع لزيارة أهله وأخواته، تعلو ضحكاته، يتبادل معهم حُلوَ الحديث وأجملَ الكلمات يمنح أولاد شقيقاته مكافآتٍ سخيةً لنجاحهم في الامتحانات، لكنه لا يعرف في أيّ عامٍ دراسي ابنه الأكبر، يعود من عمله بعد آذان المغرب متعبًا جائعًا، إذا فتحت في أشار لي بالسكوت، يجلس أمام التلفاز ويفتح كلَّ الجرائد اليومية يقرؤها كلها حتى صفحة الوفيات والإعلانات، يشاهد الأفلام المتكررة والمسلسلات المملة والأفلام القديمة التي يحفظها عن ظهر قلب، ثم تسقط الجريدة من يده وتميل رأسه إلى الخلف وينام. يوقع الشهادات الدراسية لأولاده دون أن ينظر فيها، يحادث زملاءه في التليفون ويحكي لهم بالتفصيل المُمَلِّ ما حدث مع المدير العام وحتى مشكلاتهم الشخصية يحلها لهم.

تقوقعتُ على نفسي، أمام المرآة أقف أتحدث مع نفسي ولا أحد يسمعني سواها، تركتُ أحلامي وطموحاتي أو هي التي

تركتني، أَخْتَنِقُ بأحزاني ودموعي التي تحجرت في مقلتيّ، إذا ناديته، أسمع صدى صوتي، حتى إذا مرضت يتركني ويذهب لمقابلة أصدقائه ولا يعود إلّا مع أذان الفجر، أحضرتُ حقيبتينِ كبيرتينِ وضعتُ فيهما كلَّ شيءٍ سألتُ أولادى:

- أتحبون بابا؟

نظروا إليّ في دهشة:

- طبعًا.. نحب بابا.

ابنتي الصغيرة التي لم تتجاوز الخمس سنوات تركت دُمْيَتَها وقالت:

- خلي بالك بنحب بابا. عشان هو بابا وبس.

ثم عادت تداعب دميتها، ولم أُعاوِد السؤال!

حقيبة بلا قاع

تزوجتُ منذ عشر سنوات، تخيلتُ أني بزواجي قد تخلصت من حياتي الكئيبة مع زوجةِ أبي التي أذاقتني كلَّ صنوفِ العذاب والاضطهاد.

زوجي رجلٌ بسيط، طيب، لا يهش ولا ينش، يتعامل مع كلِّ الأشياء ببساطةٍ، لا يعبأ بأيّ شيءٍ ، يعمل كلَّ شيءٍ بآليةٍ شديدةٍ فكأنه يعيش بالريموت كنترول، يأكل ويشرب ويعمل، لكنه لا

يفكر لا يختزن في ذاكرته أيَّ شيءٍ، وكأن مُخّهُ بلا ذاكرةٍ يرى كل الأشياء حوله ثم ينساها.. حتى أنا لا يتذكرني إلا حينما يحتاجني فإذا انتهى احتياجُه.. نساني.

عندما تمت خطبتنا كان رجلاً آخر غير الذي أعيش معه الآن، يحبُّ ما أحبُّ، ويكره ما أكره، لا ينسى مواعيدنا ولا عيد ميلادي، يأتي لي بهديةٍ صغيرةٍ من وقت لآخر، يحترم رغباتي ويَعِدُني بتحقيق كل الأمنيات والأحلام، لكنه بعد الزواج بشهر واحدٍ تحوّل إلى الآلة التي أعيش معها الآن.

ماتت أمه بعد زواجنا بعدة شهورٍ كانت تذكره بواجباته وما له وما عليه، ومِن بعدها وذاكرته بيضاء، لا يحمل أيَّ شيءٍ فيها وكأنها حقيبةٌ بلا قاعٍ.

لا ينجب؛ فلم يهتم، بل استراح قائلًا:

- كده أحسن، أنا وأنتِ وبس، الأطفال مسئولية ومصاريف.

حاولتُ أن أستسلم لقدري، أكتمَ التمرد الذي بدأ ينمو بداخلي، أَبْخَرَةٌ من الغضب أخذتْ تتصاعد وتتجمع بداخلي إذا انفجرت ربما دَمَّرت كلَّ شيءٍ، الجميع يحسدني على هذا الرجل المسالم، لكني أحب الحياة بكل مفاجآتها ومتغيراتها، بإقبالها وإدبارها، ولأني طبيبةُ أطفال.. بدأ رحمي يتألم، يَتَأَوّهُ، يشتاق للحبل السُريّ ليلتصقَ به، لتتشعبَ أوعيته الدموية بداخلي وتختلطَ دماؤه بدمائي، يحتاج رحمي لقلبٍ صغير ينبض بداخله، أمنحه من قلبي وحناني وحبي كلَّ ما يحتاج حتى إذا طلب عمري كله، أعطيته له عن طيبِ خاطرٍ، هزني حنيني إلى الحبِّ الطفولي البريء، دفعنى الصبر الذي نفد إلى الذهاب لصديقتي طبيبة أمراض النساء والتوليد التي فحصتني وقمتُ بعمل كل التحاليل والفحوصات اللازمة، تاكدت أني صالحةٌ للإنجاب وأن زوجي هو العقيم، انفجر غضبي المتراكم عبر سنوات الانتظار..دخلتُ إلى غرفة نومي، حملتُ حقائبي الممتلئة، وخرجتُ.

التقدم إلى الخلف

"موقف ١"

احتفلنا اليوم بعيد ميلاد ابنتي الأول، أصبحتْ تحبو وتقف وتخطو بضعَ خُطواتٍ ثم تقع، أحضرتُ الألبومَ الخاص بعائلتي لترى صورةَ جدِّها الذي رحلَ بعد زواجي بعدة شهور، أخرجتُ صورةَ زفاف أبي وأمي، نظرت إليهما فإذا بهما يبتسمان، عاشا معًا ثلاثين عامًا في صفاءٍ وسعادةٍ ومحبةٍ نظر إليّ أبي قائلًا:

- "ما زلتُ أحبها، مع إنى أكبر منها بعشرين سنة، هي كل حياتي أعطيتُها عمري وصحتي ومالي، وكل ما أملك فهي لي السكنُ والقلبُ الحنون والفراش الدافئ والهدوءُ النفسي".
- ضحكتْ أمي قائلةً:

- "كنتَ أنتَ الزوجَ والأخَ والأبَ والحبيبَ والصديقَ، مدّتْ يدها له بوردةٍ بيضاءَ، مدَّ يده لها بزهرةٍ حمراءَ أحاطها بذراعه وذهبا معًا.

موقف (٢)

حضر زوجي مكفهرًا..

- المواصلات صعبة جدًّا اليوم.
- أول يوم للدراسة دائمًا زحام.
- حضِّري الأكل بسرعة، أنا نازل تاني.
- فين؟
- عندى ميعاد مهم.
- مع مين؟

لا يرد، يجلس ويلتهم الطعام بسرعةٍ شديدةٍ، يغيِّر ملابسَهُ، يتوجه نحو الباب، أنادي عليه، فلا يرد، ألحق به:

- رايح فين؟ والدتي مريضة، لازم تقعد مع البنت الصغيرة، عاوزة أروح أزورها، أمي وحيدة وتحتاجني.
- خذي بنتك معاكي وروحي ما طرح ما أنتِ رايحة.
- البنت حاتشغلني، عاوزة أخدمها وأراعيها شوية واطبخ لها شوية

أكل.

- أنا مش فاضي، رايح شغل تاني بعد الظهر.
- مش محتاجين، كفاية شغل الصبح.
- فوقي يا هانم.. إحنا في القرن الواحد والعشرين.
- يعني أيه؟
- يعني كلها سنتين ثلاثة والبنت تروح المدرسة، عاوزين مصاريف كتير.
- عاوزة أقولك حاجة..
- - أيه.. قولي بسرعة أنا مستعجل.
- أنا حامل.

موقف (٣)

انتفخَ بطني، ظهري يؤلمني، يعلو صراخ ابنتي تريد كوبَ الحليب ينادي عليّ زوجي لأبحثَ له عن جواربه بالرغم من وجودها أمامه في درج "الشيفونيرة"، يرن جرس التليفون، الحليب يفور على الموقد، ينادي زوجي مرةً أخرى.

- مش عارف بتعملي أيه طول النهار؟! التليفون بيرن، شوفي مين؟

- والدتك عوزاك.

يترك كلَّ شيءٍ..يتحدث مع والدته بصوتٍ منخفضٍ، تتعالى سحابات الغضب، يضع سماعة التليفون، يدخل غرفةَ النوم

ليرتدي ملابسه، ألحق به، أطلب منه مصاريف الطبيب لمتابعة الحمل.

ينظر في وجهي متعجبًا

- متابعة حمل أيه؟ أمي ولدتنا سبعة من غير ما تروح للدكتور إلّا عند الولادة، كل شوية مصاريف، فلوس فلوس..
- علشان المولود الثاني.
- مش عاوزين عيال، روحي نزليه.

مفاتيح

منذ أن تزوجتُ من أحد كبار رجال الاعمال وهو يصطحبني من وقتٍ لآخر إلى لندن، نذهب معًا إلى ميدان الهايت بارك، يتوجه إلى شجرةٍ ضخمةٍ، يقف أمامها طويلًا يتأملها يدور حولها، ينظر إليها نظرةً عميقةً وحزينةً.

سألته يومًا عن هذه الشجرة، ولماذا يحرص على زيارتها؟ نظرَ إليّ طويلًا ثم أشاحَ بوجهه بعيدًا حتى لا أرى دموعًا تجمّدتْ في عينيه. دواليبُ زوجي مغلقة بالمفاتيح، أدراج مكتبه، سيارته، خِزانة النقود، كومة كبيرة من المفاتيح يحتفظ بها أين لا أدري! المفتاح الوحيد الذي صَنَعَ منه نسختين هو مفتاح الشقة ومفتاح الجراج، بحثتُ طويلًا عن أماكن المفاتيح بدون جدوى، افتعلتُ مشاجرةً حتى أعرف سرَ هذه المفاتيح كلها، ترك لي البيت وخرج.. بتُّ ليلتي وحدي أبكي، انفجرَ غضبي وشعرت أني لستُ أمينةَ سرِّهِ ومحورَ اهتمامه، بل أنا على هامش هذه الحياة. كسرتُ أحد

أدراج المكتب، خلعتُه خلعًا عثرت على أجندةٍ كبيرةٍ كتب فيها مذكراته منذ أن كان في العاشرة من عمره وحتى الآن، استغرقتُ في القراءة..ألجمتني الدهشةُ، ما إن انتهيتُ من قراءة المذكرات حتى فقدتُ الوعي!

تحريض

أفقت من نومي فَزِعَةً، زوجي يهزني بشدةٍ، ويصرخ فيّ أنْ أستيقظَ بسرعةٍ، فركتُ عينيّ بأصابعي، سألتُه متثائبةً:

- الساعة كام؟
- ثمانية.
- بالليل ولا بالنهار.
- بالليل طبعًا، قومي بسرعة اغسلي وشك والبسي، وحضَّري عصير، عندنا ضيوف.
- دلوقت؟!
- أُمّال بكرة.. ياللا بسرعة.
- مين الضيوف؟
- أصحابي.

داهمتني كلمته الأخيرة، نظرتُ إلى الفراش، وضعَ زوجي قميصًا من قمصان

نومي المكشوفة جدًّا على حافة السرير، أمسك بالقميص، ألقاه في وجهي تجمّدتُ في مكاني، اقتربَ من الفراش، جلسَ إلى جانبي، همسَ في أذني:

- هايدفعوا كويس، وكان جايبين جاتوه وبيرة وهدايا علشانك.

اقشعرَّ بدني، أحسستُ بغثيانٍ شديدٍ، قفزتُ إلى الحمام، عدتُ إلى غرفة النوم، ارتديتُ ملابسي على عجلٍ، وضعتُ في حقيبتي كلَّ ما طالته يدايْ، خرجتُ من الغرفة، تسمعتُ صياحَ زوجي وأصحابه ضحكاتهم خناجر في أذني، فتحتُ باب الشقة، التهمتْ ساقاي درجات السلم.

ذو الوجهين

أعمل عشر ساعات يوميًا بالإضافة إلى رعاية بيتي وأولادي، أخدم جدتي المريضة والتي كثيرًا ما توقظني من نومي؛ لأصنعَ لها شرابًا ساخنًا أو أدَّلك قدميها بدهانات الروماتيزم، أعود خالِيَ المُسِنَّ وأزوره من وقتٍ لآخر؛ حفظًا لصلة الرحم وإرضاءً لربِي ولذكرى أمي الحبيبة، أجامل أقاربي وصديقاتي المقربات في بعض المناسبات على قدر استطاعتى، ويوم العُطلة الأسبوعية لا أقوى على النهوض من فراشي، يأتي زوجي بصينيةٍ كبيرةٍ عليها طعام الإفطار، ثم بكثيرٍ من الهدوء، قليلٍ من الابتسام يستأذنُ في الخروج لزيارة بعض الأصدقاء، في هذا اليوم الذي لا أنساه رفعتُ سماعة التليفون، أتصلُ بشقيقتي، لا أحدَ يرد ظننتُ أنها مشغولةً أو خرجت لقضاءِ بعض الحاجيات من السوق، اتصلتُ بشقيقي الوحيدِ للسؤال عنه وعن أسرته

صُدمتْ أذناي للهجته الجافة الغاضبة:

- لا تتصلي بي مرةً أخرى، ليس لي شقيقاتٌ بهذا الاسم.
- ذُهلت من سيلِ الغضب الذي صَبّهُ في أذني ووجداني. اتصلتُ بخالي للسؤال عنه هو أيضًا، جاءني صوتُه الأجشُّ المتحشرجُ:
- لستِ ابنةَ أختي التي كنتُ أحبها، وحين تأتي إلي أتذكر أمها، أختي وحبيبتي وتوأم روحي، لم أعد أطيق زياراتك ولا كلامك السخيف المنافق.

أغلقَ سماعةَ التليفون وأنا أكادُ أفقدُ وعيي من شدة الألم، ماذا يحدث حولي؟!

اتصلتْ بي جارتي وصديقتي تخبرني أيضًا أنها تقطع علاقتها بي، ولا يشرفها معرفتي بعد ذلك، ارتديتُ ملابسي، قُدتُ سيارتي وأنا لا أرى الطريقَ ولا أعرف إلى أين أذهب، أوقفتُ سيارتي أمام منزل خالي، دققتُ البابَ بكلتا يدي فتحتْ زوجةُ خالي البابَ وهي تقف أمامي تصدني عن الدخول، أزحتُها بيدي، واندفعتُ إلى الداخل، نظرتُ إلى خالي في فراشه يستند بظهره على الوسائد مسترخيًا يشاهد التلفاز، ما إن رآني حتى أدارَ وجهَهُ بعيدًا عني، جلستُ بجانبه، أحطتُهُ بذراعيّ، ألقيتُ رأسي على صدره انفجرتُ في بكاءٍ شديدٍ، ضمّني خالي بصدره أكثر وأكثر متسائلًا:

- ماذا يحدث؟

- من بين شهقاتي وعبراتي أخبرتُه بما يحدث لي، لماذا يحاول الجميع قطع علاقتهم بي؟ حتى أنتَ يا مَن تُذكرني بالأهل والأحباب!
- مَن قال لك أني لا أحبُّ زيارتك ولا حكاياتك ولا ضحكاتك الجميلة، أنتِ عبقُ الذكرى وعطرُ الأحباب. زوجُكِ أتى عدةَ مراتٍ وأخبرني بما قلتُ، حين يأتي لزيارتي وحده يصبُّ في أُذني ما تقولينه عنا.
- لم أقلْ له أيَّ شيءٍ! لم أتحدث عنكم إلّا بكل خيرٍ.

عدتُ إلى بيتي بعد أن مررتُ على شقيقي وشقيقتي، حتى جارتي فهمتُ منها كلَّ شيءٍ، زوجي العزيز يذهب لأهلي وأقاربي ويشيع عني أني أنانيةٌ، متسلطةٌ، متعسفةٌ، متجبرةٌ، لا أحبهم، وأزورهم رغمًا عني متظاهرةً بما لا أحمله لهم من مودَّةٍ ورحمةٍ.

في المساء أتى زوجي يحمل بعضًا من الحلوى، وضع أمامي كلَّ ما بيديه، سألني مبتسمًا:

- أتيتُ إليكِ بالبسبوسة التي تحبينها، هل تريدين شيئًا آخر يا حبيبتي؟
- نعم.
- ما هو.. أنا طوع أمرك.
- احزِمْ حقائبَكَ.. وارحل.

الزهايمر

(1)

أصبح زوجي يقضي معظم أوقاته في المنزل وخاصةً غرفة نومه، منذ أن أُحيلَ للتقاعد برفضِ الذهاب للنادي والاجتماع بأصدقاء العمل والطفولة يرفض استقبال الضيوفِ معى يصالحهم ثم يعتذر للإرهاق والتعب ويعود لغرفته، حتى حضور الأولاد والأحفاد للزيارة والغداء معنا كلَّ أسبوعٍ أصبحَ لا يُفرحِهُ وحين يحاول الأحفادُ جَذْبَهُ إليهم ومداعبتهم يُصابُ بعصبيةٍ شديدةٍ، يطرد الجميعَ مِن حوله ويغلق باب غرفته بالمفتاح.

ظننتُه مريضًا، أشرتُ عليه بالذهاب لأحد أصدقائه الأطباء رَفَضَ ثم اكتشفتُ أنه يتعاطى أدويةً كثيرةً في الخفاء.

(2)

فَقَدَ زوجي وَعْيَهُ في الحمام، سقط في حوض الاستحمام، نقلته إلى المستشفى، كسورٌ بالحوض والساق اليسرى، أجروا له كلَّ الفحوصات، ثم ركّبُوا مساميرَ في حوضه وشرائحَ معدنية في ساقه، اشتدتْ آلامُه، ازدادتْ عُزلته، ينحف جسده، يبهت وجهُهُ ويعاني في صمتٍ، أسأله، أناديه، أحدثه لا يرد على أحدٍ.

(3)

جلسنا جميعًا حول مائدة الطعام، الجميعُ يضحك، يلقي ابنى ببعضَ كلماته التي ألقاها أثناء مناقشة رسالة الدكتوراه الخاصة به، يأكلون في مرح فَرِحِينَ بقدومِ ابنتي من سفرٍ طويلٍ مع زوجها وأولادها. زوجي يجلس متجهمًا، يمضغُ لقيماتٍ صغيرةً في صمتٍ، نظرَ إلينا جميعًا ثم هبَّ واقفًا صارخًا:

من أنتم؟ وما الذي أتى بكم هنا؟ اخرجوا جميعًا، أتركونى وحدي، لا أريد أن أراكم مرةً أخرى.

ذُهِلَ الجميعُ وانسحبتْ ضحكاتهم من على الشفاه تاركةً علامةَ استفهامٍ كبيرةٍ على كلِّ الوجوه.

(4)

جلستُ أبكي، لا أعرف إلى مَن أشكو وممّن أغضبُ، الرجل الجميل الذي عشتُ معه أحلى أيامي؛ كان ملءَ السمع والبصر

أصبح يلقي بالكتاب من يديه، يبكي، يئن ويتوجع، يشكو بعَبَرَاتٍ مختنقةٍ:

- لم أعد أذكر أيَّ شيءٍ، أقرأ الصفحةَ ثم أقلبها لأقرأ الصفحة التالية فأنسى كلَّ الكلمات في الصفحة السابقة، أخطئ في الحساب، أرى الوجوه أمامي فلا أعرف مَن هم، وكيف لهم أن يتواجدوا هنا؟ من أكون وإلى أين أذهب؟

أُطعمه بيدي، أُغيّرُ ملابسَه، أُعطيه الدواءَ، أضعه في فراشِهِ كطفلٍ صغيرٍ مستسلمًا لكلِّ ما أفعل، لا يتكلم.. عيناه تائهتان، يداه مرتعشتان حتى أنا لم يعُد يعرفني، فقط أنفاسٌ تتردّدُ ضعيفةً متسربةً، ذكرياتٌ تذهب بلا عودةٍ، قلبٌ يدقُّ بلا هدفٍ، حياةٌ ذهبت دون أن يعرف مَن يكون، لكننا نحن جميعًا عرفناه، وتجرعنا كؤوس الحزن عليه.

ديبلوماسية

كادت أن تتبخرَ كلُّ أحلامي وطموحاتي حين تزوجتُ، يوم أن تسلمتُ خطابَ تعييني بوزارةِ الخارجية لم أصدق، تدافعتْ دموعي مع رقصاتي طربًا وفرحًا، أحسستُ أني ألمسُ النجومَ بأطرافِ أصابعي، تدافعَ الأهلُ والجيرانُ للتهنئة، لكنّ أمي أحستْ بخطرِ العنوسة إذا استمر سفري وترحالي من بلدٍ إلى بلدٍ، في كلِّ عامٍ أذهبُ إلى هناك وأعود إلى هنا بدون توقفٍ حتى رأيته في إحدى حفلاتِ السفارة، لم يقاومه قلبي نحيْتُ طموحاتي جانبًا وتزوجتُ، حدثتني نفسي بأنه هو نفسه رجلٌ جميلُ الجوهرِ والمظهر، ولن يقف عَثرةً في سبيل تقدُّمي المهني والدبلوماسي، حتى حملتُ وأنجبتُ طفلي الأول اضطررتُ للاستعانة بأمي لتساعدني في تربية ابني فقد ارتفع شأني وتقلّدتُ منصبًا مهمًّا وتعددتْ سفرياتي أكثر واكثر، حضرتْ هي وأختي الصغرى للإقامة مع زوجي وابني في شقتنا الفاخرة، أنهتْ أختي دراستها ورضيتْ بانتظارِ التعيين في إحدى المصالح الحكومية، أحضرتُ مربيةً لابني من

إحدى الدول الأوروبية؛ لتعاونَ أمي وأختي في رعاية شئون الجميع. احتجَّ زوجي مطالبًا باستقالتي أو الحصول على إجازة بدون مرتبٍ لرعاية الطفل لكني لم أعبأ بأيّ احتجاجٍ أو خصامٍ، ربما هدأتْ مشاعري المتأججة من قبل، واشتعلتْ طموحاتي مرةً أُخرى، مللتُ العَلاقات الزوجية والمجاملات العائلية، وانحصرتْ كلُّ اهتماماتي في عملي. أحضر في عطلات قصيرة، أحمل الهدايا، أُرضِي زوجي ببعضِ العواطفِ العابرة، ثم إلى المطار في ترحالٍ جديدٍ تظهر صوري في الجرائد والمجلات، يتهافتُ الصحفيون في كل مكان على إجراء مقابلاتٍ وأحاديثَ معي، وأنا في غمرة غروري وترحالي، ابني يكبر، وزوجي دائم الاحتجاج والتجهُّمِ، ماتت أمي كمدًا بعد أن أعيتها كلُّ الحيل والنصائح لعودتي إلى البيت والاستقرار في بلدي، لكني كنتُ أرفض.

أحسستُ بأعراضٍ غريبةٍ، عرضتُ نفسي على أكبر الأطباء في البلد الذي كنتُ أعمل فيه، هزَّ رأسَه آسِفًا بعد إجراء كل الفحوصات الطبية، يجب إجراء عملية جراحية لاستئصال الثدي الأيسر، مادتْ بى الأرضُ حزنًا وقهرًا فأنا حريصة على صحتي ولا أتهاون في أيّ إجراءٍ طبيٍّ يساعدني على الاستمرار في عملي أجريتُ العمليةَ وحيدة في إحدى المستشفيات الكبرى وكان لابد من تناول الكثير من العقاقير، وعمل جلسات الإشعاع حتى لا يصاب الثديُ الآخرُ بنفس الورم الفتّاكِ. ازددتُ نحولًا، سَقَطَ شعري، أتعرضُ للإغماء، أتقيؤ كثيرًا، أصبحتُ غيرَ قادرةٍ على العيش

وحدي، لم تعد صحتي تتحمل كثرةَ السفر، قررتُ مرغَمةً العودةَ إلى بلدي، والاستقرارَ في أحضان زوجي وابني.

حين فتحتُ بابَ شقتي ووضعَ البوابُ حقائبي في مدخلها؛ وجدتُ شَغّالةً تنظفُ الرّدهةَ، فُوجئتْ بمقدمي، لا أعرفها، سألتْ مَن أنا؟ أزحتُها بيدي قائلةً:

- أنا سيدة هذا المنزل، مَن أنتِ؟!

- أنا الشغالة الجديدة .

اندفعتُ للداخل أبحث عن زوجي وابني، كان هو أولُ مَن رأيتُه، وقف أمامي متفاجئًا برؤيتي، لم يُرحب بي لم يُقبل عليّ.

ارتميتُ في أحضانه باكيةً، استقرتْ ذراعيه بجانبه، انتبهتُ فإذا بأختي تخرج من غرفة نومي ترتدي ملابسَ النومِ المكشوفةَ، شعرها منسدلٌ على كتفيها، بطنها منتفخٌ، نظرتُ إليها متساءلةً.. تبادَلت النظرات هي وزوجي، اقتربتْ منه، أَحَاطَهَا بذراعه .. صَرَخْتُ فيهما:

- ماذا يحدث في بيتي؟!

لم يَرُدْ عليّ أيُّ أحدٍ، دخل زوجي إلى غرفة المكتب، عاد وبيده ورقتين مطويتين، فتحَ الورقة الأولى، أعطاها لي، نظرتُ فيها، أتبعها بالورقة الثانية، ذُهلتْ عيناي لِمَا رأيتُ..الورقة الأولى.. وثيقة طلاقي من عدة شهور، أما الثانية...فهي وثيقةُ زواجِهِ بأختي.

عود ثقاب

لم تسعني الفرحةُ حين تقدم لخطبتي، هذا الشاب الأسمر الطويل، أسود العينين، كثيف الشارب، حَسَدَتْنِي كلُّ بناتِ الحيِّ على هذا الخطيبِ الجميل. تزوجتُ في السابعة عشر من عمري، عمره ضِعْفُ عمري، يخرج كلَّ صباحٍ إلى ورشة ميكانيكا السيارات التي يملكها ويديرها ولا يعود إلّا في منتصف الليل الذي كان موعدًا رائعًا لاستقبال زوجي، وتناولِ طعام العشاء معًا، والحلوى التي يحضرها لي كلَّ ليلةٍ.

في بداية الزواج وبالتحديد في الشهر الأول كان يرغبني في الليلة الواحدة مرتين، وربما ثلاثة..حين سألتُ أمي، ضحكتْ قائلةً:

- هذا يحدث كثيرًا في الشهور الأولى من الزواج.
- لكني أصاب بإرهاقٍ شديدٍ والتهابات وآلامٍ لا تُحتمل.

أحضرتْ لى أمي بعضَ الدهانات والأدوية نصحتني باستعمالها وألّا

أرفضَ زوجي أو أمتنعَ عنه حتى لا يزهدني بعد عدةِ شهور، أصبح زوجي يترك ورشته لعُمّالِهِ في منتصف النهار وينقضُّ عليّ يلتهمني بوحشيةٍ واستفزازٍ، حين اعترضتُ؛ ضربني وسبني بأقذع الألفاظِ وتطاولَ على أبي وأمي.

أصبحتُ أكرهُ وجودَه في البيت، أخاف منه، أتعلّلُ بأسبابٍ كثيرةٍ لأنامَ عند أمي، يأتي ويأخذني عُنوةً، يمنعني من الخروج أو الاتصال بأهلي.

في تلك الليلة لمحته يدخن بشراهةٍ السيجارةَ تلو الأخرى، سجائرُه مريبةٌ منتفخةٌ، يدخنها في استمتاعٍ، تحمرُّ عيناه، ويَثْقُلُ لسانُه ثم يغلقُ البابَ ويفترسني، حين صرختُ أخرجَ من الدولاب سوطًا وجَلَدَنِي.

أفقتُ على دماءٍ تملأ فراشي، استغثتُ بأمي التي ذهبت بي إلى أقربِ مستشفى، خدّروني ثم أخبرتني الطبيبةُ أني كنتُ حاملًا في شهرين.

أُجريتْ لي عمليةُ كَحْتٍ وتفريغٍ بعد أن سقط الجنين واشتدَ النزفُ.

أصبحتُ أفزعُ لسماع صوتِ مفتاحه يدور في طبلة الباب، حين ينصرفُ أصابُ بنوبات البكاء الهستيرية، يأخذ مني ما يريد، وينام مسترخيًا سعيدًا بنفسه وبفحولته.

وضعتُ ملابسي في حقيبةٍ استعدادًا للرحيل، أتى فرآني أرتدي ملابسي؛ هَجَمَ عليّ، شلّ حركتي، بدأ يلتهمني، قاومته وخرجت مندفعةً من باب غرفة النوم، هرولتُ إلى المطبخ، فتحتُ قارورةَ بنزينٍ كبيرةٍ أحضرها زوجي في

اليوم السابق ليملأ خزانَ سيارته صباحًا، سكبتُ كلَّ البنزين على رأسي وجسدي، وأَشْعَلْتُ عودَ ثقابٍ.

الثالثة..بعد منتصف الليل

بعد أسبوع من زواجي، وأنا أتقلب في فراشي تفقدتُ زوجي.. فلم أجده! مكانه البارد دفعني للقفز مسرعةً من سريري أبحثُ عنه، وجدتُه يجلس في غرفة المعيشة يشاهد التلفاز، حين رآني ابتسم..

- لا تقلقي هذه عادتي منذ أن كنتُ أعيش وحدي في هذه الشقة، أنام مبكرًا ثم أستيقظ في الثالثة بعد منتصف الليل أتناولُ بعضَ الطعام وأشاهد التلفاز ثم أذهب إلى عملي مع شروق الشمس.

أخبرنى الطبيبُ أني حاملٌ في توأمٍ، اضطررت لإحضارِ "أم السعد" من بلدتنا لتقيمَ عندي، وهي فتاةٌ يتيمةُ الأبوين أوصانا أبوها قبلَ وفاته برعايتها فهي قليلة الحظ في التعليم والجمال والأنوثة. بعد عدةِ أيامٍ من إقامتها عندي أصبح زوجي يطلبُ كلَّ شيءٍ منها.

- أم السعد، حضري الطعام. أم السعد، أين جواربي؟ أم السعد

- اكوى القميص لأذهبَ إلى عملي.

أصبح مُلازِمًا للبيت واستمرَ يشاهد التلفاز في الثالثة بعد منتصف الليل، وضعتُ التوأمَ، أصبحتُ عصبيةً قليلةَ النومِ، قليلةَ الكلامِ أتهرّبُ من لقاء زوجي ليلًا إذا طُلِبَ مني أيُّ شيءٍ، تصنعتُ الانشغالَ بطفليّ. يخرج زوجي وحده لمجاملة الأهل والأصدقاء، يحضر الأفراح ويشارك في الأتراح يسألونه عني، يجيب بلا مبالاةٍ.

- مشغولة بالأولاد.

حين تفقدتُه هذه الليلةَ في فراشه لم أجده، استيقظَ أحدُ الطفلينِ، جلستُ أُرْضِعُهُ، لا أسمع صوتًا لأيّ شيءٍ، لا أنفاسَ، لا تلفاز، لا وقعَ لأقدامِ زوجي ولا حتى لطيْفِهِ المتحرك في غرفة النوم أثناء نومي ليحضر ملابسه ويذهب إلى عمله، نام طفلي، على أطرافِ أصابعي تسللتُ أبحث في غرفة المعيشة، في الحمام، في الصالة، سمعتُ غَمْغَمَةً، أصواتًا خافتةً متضاحكةً.

توجهتُ إلى غرفةِ أمِّ السعد... زوجي ينام في أحضانها!

لا أكذب، ولا أتجمل!

يعمل زوجي وسط غاباتٍ سوداءَ، صفراءَ، حمراءَ، بنيةٍ، مُتَمَاوَجَةٍ، متكاثفةٍ، تارةً مرتفعة وتارةً منسدلة طويلة، قصيرة، تختلط بحكاياتٍ وضحكاتٍ ودموعٍ. يتعامل هو بلباقةٍ مع كل الأشكال والألوان، أمّا أنا فقد أتى بي من قريتي بعد إقناعِ عمّه، الذي هو أبي أنه يحتاج لي كزوجةٍ فهو أولى من الغريب. يقف كلَّ يومٍ في محل الكوافير، امرأة تذهب وتجيئ أخرى، يُزَيِّنُ هذه، يصبغ شعر تلك، يضع المساحيق على وُجوهِ العرائس، يُثَبِّتُ الطرحةَ على رأسها ويسدلها على كتفيها، ربما لمسَ هذين الكتفين، أو هذا الوجه، أو تلك الرقبة.

يعود في المساء يضع قدميه في الماء الساخن المُشَبّعِ بالمِلْحِ، يدّعي أن هذا الماء يزيل التورم والألم من قدميه لطول فترة العمل.

حاولتُ أن أدفعه في أحد الأيام أن يُصفِّفَ شعري أو يصبغه أو يلطخ

وجهي بما يضعه على وجوه الأخريات من مساحيق. نهرني بشدةٍ، وادّعى أنه يريدني هكذا بدون رتوشٍ أو ألوانٍ.

أصبح زوجي من أكبر المتخصصين في التجميل في مدينتنا الكبيرة اشترى بكل مدخراته مركزًا للتجميل والنحافة، دَعَّمَهُ بغرفِ التمرينات الرياضية، والساونا، وعلاجِ تجاعيدِ الوجه، وأفردَ جناحًا كاملًا لتصنيع الكريم والشامبو والجيل والبودرة والروج والآي لاينر والآي شادو، يجمعُ الأموال طوالَ اليوم، يعُدها.. يرتبها، يفكّر في بناء عمارة كاملة يحولها إلى فندقٍ لإقامة العملاء القادمين من المدن والبلاد المجاورة.

مللتُ البيتَ والأولادَ ووجهَ الشغالةِ التي أحضرها لى زوجي لمساعدتى في شئون المنزل بعد إنجابى لسبعةٍ من الأولاد، تمنيتُ بنتًا فجاؤوا كلهم ذكور، أُصبتُ بالاكتئاب فأنا وحدي طوال الوقت، كلٌّ مشغولٍ بحاله وأصدقائه أما أنا فلا أحدَ يشعر بي، أحسستُ أني وعاءٌ يمتلأ ويفرغ، كمٌّ مهملٌ في بيتٍ فارغ من الحبّ، لا شيءَ فيه إلا الرغبة المعتادة الكئيبة الفاشلة التي يحاول بها زوجي إثبات رجولته المنسحبة منه رويدًا رويدًا بعد إدمانه الكحول والمخدرات. حاولت من باب التغيير أن أزوره في مكان عمله، مررتُ على أكبر محلٍ للحلوى والشيكولاتة، اشتريتُ النوع الذي يحبه، حملتُ باقةً كبيرةً من الأزهار والورود المتنوعة، أحببتُ أن أفاجئه، دخلتُ المركز لم أخبر أيَّ موظفٍ أو موظفةٍ أني زوجته، منظري العادي جدًّا لم يدفع أيَّ

أحدٍ للاهتمام بي، ظنوا أني زبونةٌ عاديةٌ، سألت إحدى العاملات عن مكتب المدير، نظرت إليّ شذرًا وبلامبالاةٍ أشارتْ إلى اليسار في آخر الممشى.

وصلتُ إلى الباب الكبير طرقتُه بأطرافِ أصابعي.. لم يفتح أحدٌ، أمسكتُ بمقبض الباب محاولةً فتحَه؛ البابُ موصدٌ ومحكمُ الغلقِ، نظرتُ إلى أعلى، لمبةٌ حمراءُ موقدةٌ بأعلى الباب، ويافطةٌ صغيرةٌ مكتوبٌ عليها ممنوع الدخول..غرفة التدليك!

صبرية

بعد عودتي من أسبوع العسل، أهدتني إحدى صديقاتي قطةً رومية جميلةً عمرُها شهرٌ واحدٌ، ناعمةُ الشعر، واسعةُ العينين، تموءُ بصوتٍ ضعيفٍ وكأنها تبحث عن أمها، أصبحتُ أعتني بها كثيرًا فأنا عطوفةٌ على الطيور والحيوانات، أما زوجي فقد ترك الكمبيوتر وتفرّغ لها، يمسج شعرها، يحممها يطعمها بيده، يحضر لها أفخرَ أطعمة القطط، يذهب بها إلى الطبيب البيطري كلَّ شهرٍ مرةً ليطمئنَ على صحتها، يبتاعُ لها أجملَ الشرائطِ الحريرية يلفُها حول رقبتها، يصحبها معه إلى كلِّ مكانٍ يذهب إليه حتى لزيارة أهله، أطلقَ عليها اسم (صبرية) لأنها تقف منتظرةً في صبرٍ وهدوءٍ تنقل عينيها بينه وبين علبة الطعام حتى يضع طبقها أمامها، فتقترب منه في كبرياءٍ وتتأمل ما بالطبق ثم تبدأ في الْتِهَامِ الطعامِ، عَوّدَها زوجي على احتساءِ طبقًا من الشوربة يوميًّا وخصّصَ ملعقةً ووعاءً عميقًا لها هي وحدها.

أصبحتُ أغار من القطة التي تكبر يومًا بعد يوم. انتقل زوجي للنوم بجانبها، ضبطها تنسحب من جانبه، تتجه إلى باب الشقة، تعمل فيه مخالبها، تمدُّ يدها تخمشُ الباب، تقف متحفزةً، يعلو مواؤها، تلف وتدور، ترفض الطعام، تحاول الانفلات من الباب، يقفز خلفها زوجي، يحملها يُقبِّلُها، يمسح على شعرها، تنظر إليه، يضعها في الفراش، يحتضنها ويدفئها فتنام بين ذراعيه، أصبحتْ تفقد وزنها، ترفض المداعبةَ؛ أخذها زوجي للطبيب الذي نصحه بتركها خارج البيت يومًا أو بضعة أيام..القطة تريد زوجًا.

انزعج زوجي كثيرًا متأفِّفًا من فكرةِ خروجها من المنزل، قد تصاب بمرضٍ أو قد تَتَمَرّغُ في الغبار أو قد تدهسها سيارةٌ أو قد يخطفها طفلٌ يعذبها أو يقتلها أو قد تأكل طعامًا ملوثًا.

في اليوم التالى.. أتى زوجي بقط ذكر رومي فاخر، نَظّفَهُ بنفسه، أطعمه داعبه، أدخله للقطة في غرفتها، أغلقَ عليهما الباب، جلسَ أمامه ينتظر ملأتُ الحقائبَ بكلِّ أغراضي وغادرتُ.

أخيرًا

(1)

اختلطتْ عليّ الأشكالُ والألوانُ، اضطربتْ أعصابي من شدة صراخ زوجي، ألقى في وجهي بالورقة التي أعطيته إياها.

- عشرين جنيه يا مفترية تشترى بيهم رز وسكر! لا..أنا بعد كده أجيب خزين البيت بنفسي.

في الصباح الباكر، حاولتُ فتحَ الثلاجة فلم تُفتح، دواليب المطبخ فلم تُفتح، وقفتُ حائرةً، كيف أُعِدُّ طعامَ الإفطارَ لأولادي؟!

أيقظتُ زوجي الذي نَهَضَ متثاقلًا، سألني عمّا أريد أَخْرَجَ مِفْتَاحَ الثلاجةِ وفَتَحَهَا، أخرجَ قطعةً من الجبن، وبطرمان المربى، وضعهما أمامي على طاولة المطبخ، جرَّ ساقيه لغرفةِ النوم؛ لِيُعَاوِدَ غَطِيْطَهُ مرةً أخرى، هرولتُ خلفَه:

- والشاي والسكر؟!

- ليه..هو ده وقت شرب شاي؟
- أعمل شاي بالحليب للأولاد.
- مالوش لازمة.

(2)

يخرج زوجي في التاسعة صباحًا ويعود الحادية عشرة مساءً، استقالَ من عمله الحكومي وبدأ عملًا حرًّا من عشرين سنة، يحتفظ بكل أوراقه وملفاته في خِزانةٍ حديديةٍ كبيرةٍ بغرفةِ مكتبه، وممنوعٌ عليّ أنا والأولاد دخول هذه الغرفة التي أصبحت مغلَّفةً بأكوامِ الغبار. طلب مني تنظيفها بعد نوباتِ السعال وضيق التنفس الذي سببه له الغبار، وقف في منتصف الغرفة عيناه لا تفارقانِ الخزانة الكبيرة التي لا تحتوى إلّا على بعض الأوراق!

(3)

دخلتُ غرفة أولادي، أيقظتُ ابني الأكبر للذهاب إلى الكلية؛ وقف ابني في مواجهتي مضطربًا، خشيت عليه من شدةِ توتُّره، حسبتُه مريضًا، أتاني صوته خجولًا ضعيفًا:

- ماما، عايز أطلب حاجة.. بس خايف.
- أطلب يا حبيبى.. خايف من إيه؟
- من بابا.
- ليه ..هوه بابا بيخوِّف؟
- يا ماما أنتِ شايفة، كل حاجة بالقطارة.
- قول بسرعة عشان تلحق ميعاد الكلية، عندك المحاضرة الأولى.
- الكلية طالعة رحلة الأقصر وأسوان، ودي آخر سنة.
- بكم الرحلة؟
- ربعماية جنيه، وكمان عاوز بلوفر جديد، كل هدومي خلاص مبقتش نافعة.

نظرتُ إلى أصابع كفي الفارغة من كل شيءٍ، حتى خاتم الزواج أخذه زوجي.

(4)

شحنتُ نفسي بطاقةٍ من الشجاعة والقوة، لكني وقفتُ أمام زوجي أرتعشُ، تزينتُ له بما تبقّى عندي من مساحيق التجميل، وضعتُ على لساني أحلى الكلماتِ، بدأتُ أحدثُه عن رحلة ابني، والبلوفر الجديد .

وقف مشدوهًا ومتحفزًا:

- ربعماية إيه! دول يأكلونا شهرين.

ثم مستهزءًا:

- وكمان بلوفر جديد! ده أنا ملبستش بدلة جديدة من عشر سنين.

استجمعتُ ما تبقى من كياني وكرامتي قائلةً:

- وكمان أخوه عاوز قميص جديد، وجزمة..

- لم أكمْل حديثي أو رجائي، صَرَخَ زوجي واضعًا كفه اليمنى على الجهه اليسرى من صدره:

- لأ.. دا أنتوا عاوزين تموتوني.

اقتربتُ منه محاولةً تهدئته، احمرَّ وجهُهُ، ثم عَلَتْهُ صُفرةٌ شديدةٌ، عاود صراخَه، سقط على الأرض، أحضرتُ له كوبًا من الماء، خرج الزَّبَدُ من شفتيه؛ أغمضتُ عينيه، لمحتُ كومةً من المفاتيح تَتَدَلّى من جيبِ سرواله القديم الذي اهترأ، فتحتُ الخزانةَ الكبيرة، أكوامٌ من الدولارات واليورو والريالات والدراهم، وثائق، عقود شركات، عقارات، صفقات..

ناديتُ أولادي، سَلّمْتُهُمْ مِفتاحَ الثلاجة!

الكاتبة في سطور

نادية محمد البرعي

من مواليد الإسكندرية.

بكالوريوس طب وجراحة.. جامعة الإسكندرية.

ودبلوم في الصحة العامة.

صدر لها:

مرثيةُ الموتى للأحياء..مسرحية.

الرؤيةُ في الفراغ ..قصص قصيرة: "طبعة أولي وثانية".

وجهٌ في السحاب..قصص قصيرة.

صرخاتُ قلبٍ..ديوان نثرٍ فنيٍّ.

همساتُ قلبٍ.. ديوان شعر.

وما زالت الأشواك في جسدي..رواية.

تحت الطبع:

في الصعود..مجموعة قصصية.

فهرس

أسبوع واحد	9
خيال مآتة	13
الكرز الأسود	17
أرجوحة	21
كفٌّ صغير	25
جدران	29
إنحناء	31
صالة الألعاب	33
إعدام	37
ليلة زفاف	43
أشكال هلامية	45
أوراق مرتَّبة	49
أستغفر الله	53
حوار الطرشان	59
حقيبة بلا قاع	63
التقدم إلى الخلف	65
مفاتيح	69
تحريض	71
ذو الوجهين	73

الزهايمر	77
ديبلوماسية	81
عود ثقاب	85
الثالثة..بعد منتصف الليل	89
لا أكذب، ولا أتجمل!	91
صبرية	95
أخيرًا	97
الكاتبة في سطور	101

رقم الايداع / 1864 / 2014

الترقيم الدولى / ٤ - ٤٧ - ٥٣١١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

مطبعة ابراهيم سالم

01144595757